

في
التنوير الإسلامي

« ٢٨ »

الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدنة ؟ .. أم تفتيت واختراق ؟؟

تأليف :

د . محمد عمارة

الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة ؟ .. أم تفتيت واختراق ؟؟

تأليف :

د . محمد عمارة



مكتبة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨

اسم الكتاب: الأقليات الدينية والقومية

تنوع ووحدة ؟ .. أم تفتيت واختراق ؟؟

اسم المؤلف: د / محمد عمارة

تاريخ النشر: ديسمبر ١٩٩٨ م . (طبعة أولى)

رقم الإيداع: ١٦٧٤٥ / ١٩٩٨ م .

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0889 - 5

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة ،

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٢٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)

فاكس: ٢٣٠٢٩٦ / ٠١١

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢

فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ / ٠٢ ص.ب: ٩٦ الفجالة

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

ت: ٢٤٦٦٤٣٤ - ٢٤٧٢٨٦٤ / ٠٢

فاكس: ٢٤٦٢٥٧٦ / ٠٢ ص.ب: ٢٠ إمبابية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)
إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
وظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]

شهادات

● « إنه من الحق أن نقول :

إن غير المسلمين قد نعموا - بوجه الإجمال - فى ظل الحكم الإسلامى ، بدرجة من التسامح لا نجد معادلا لها فى أوربا قبل الأزمنة الحديثة . وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح ... »
المستشرق الإنجليزى : سير توماس أرنولد - فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ .

● « لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام !! »
المستشرق الألمانى آدم مترز - فى كتاب (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ج ١ ص ١٠٥ - ..
● « إن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين كانت قصيرة .. ويحكمها ثلاثة عوامل :

الأول : هو المزاج الشخصى للخلفاء ..
والثانى : هو تردى الأوضاع الاقتصادية لسواد المسلمين ، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين الشاغلين لمناصب إدارية عالية ..
والثالث : مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة .. » الكاتب المسيحى اللبنانى جورج قرم - فى كتاب (تعدد الأديان ونظم الحكم) ص ٢١١ - ٢٢٤ - ..

إن «لغة الأرقام» هي أبلغ اللغات في نقض الأباطيل والأوهام ..
 فالأرقام لا تعرف الأهواء ولا المذاهب ولا «الأيديولوجيات» ..
 فما بالنّا إذا كانت مصادر هذه الأرقام غير مسلمة .. والمسلمة منها
 علمانية ، تناصب التوجه الإسلامى شديد العداء .. إنها ،
 عندئذ ، تحتل فى المصادقية الدرجات الأعلى ، لأنها من نوع :
 (وشهد شاهد من أهلها) ! ..
 وهذه الأرقام تقول :

● إن تعداد الوطن العربى - من المحيط إلى الخليج - هو ٢٣٥ مليوناً ..

● وإن فى الأمة العربية تنوعاً لغوياً (قومياً) .. وتنوعاً دينياً ..
 ففيها المسلمون الأمازيغ - (البربر) وتعدادهم يبلغ أربعة عشر
 مليوناً .. وفيها المسلمون الأكراد ، وتعدادهم يبلغ أربعة ملايين
 ونصف المليون ..

وفيها العرب النصارى ، الذين تتوزعهم ثلاث عشرة طائفة ، يبلغ
 مجموعها سبعة ملايين ونصف المليون .. ونصف هؤلاء النصارى
 العرب - تقريباً - يعيشون فى مصر - أكثر قليلاً من ثلاثة
 ملايين ، يمثلون ٥,٩ ٪ من سكان مصر ، الذين يبلغ تعدادهم ستين
 مليوناً ..

● ولأن البعض يشكك في بعض هذه الأرقام الرسمية - وخاصة في تعداد أقباط مصر - ويذهب في التقديرات الجذرافية - بل والخرافية - إلى حد الزعم بأن أقباط مصر هم خمسة عشر مليوناً - أي ضعف كل نصارى العالم العربى ، من المحيط إلى الخليج!! - فإن أصحاب (أطلس معلومات العالم العربى) - وأحدهما كاثوليكي مارونى ، والثانى كاثوليكي فرنسى - يستغربان التشكيك في تعداد أقباط مصر ، فيقولان :

«... ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار تؤكد هذه الأرقام الرسمية ، ونلاحظ تناقصاً طفيفاً فى نسبة عدد الأقباط ، كما يتبين من التعدادات المتتالية :

إذ كانت نسبة الأقباط أعلى قليلاً من ٨٪ من العدد الكلى لسكان مصر فيما بين عامى ١٩٠٧ م و ١٩٣٧ م ، ثم هبطت النسبة إلى ٧,٩٪ فى تعداد سنة ١٩٤٧ ، وإلى ٧,٣٪ فى سنة ١٩٦٠ م ، و ٥,٩٪ فى سنة ١٩٨٦ م .

وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام ، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة » . (أطلس معلومات العالم العربى) ص ٣١ ، ٣٢ طبعة دار المستقبل العربى - القاهرة سنة ١٩٩٤ م - .

● وهناك سببان لهبوط نسبة عدد النصارى فى مصر - وفى الشرق العربى عموماً - :

أولهما : أن هجرتهم إلى خارج الوطن أعلى من هجرة

المسلمين .. ولقد زادت هذه الهجرات منذ خمسينيات القرن العشرين ، بعد قوانين الإصلاح الزراعى ، والتمصير والتأميم للاقتصاد المصرى ، وتحرير هذا الاقتصاد من النفوذ الأجنبى .

وثانيهما : أن نسبة المواليد بين الأقباط هى أدنى منها لدى المسلمين .. فمتوسط مواليد المرأة المسلمة - ما بين عامى ١٩٥٧م و ١٩٨٧ - وهى الفترة التى هبطت فيها نسبة الأقباط - .. هذا المتوسط صعد - لدى المرأة المسلمة - من ثمانية أطفال إلى تسعة ، ثم أخذ فى الهبوط حتى وصل إلى خمسة أطفال .. بينما هذا المتوسط قد هبط - فى ذات الفترة - عند المرأة النصرانية - من أقل من خمسة أطفال إلى أقل من ثلاثة أطفال - أى أن نسبة المواليد بين المسلمين تقترب من ضعفها لدى النصارى - (المصدر السابق . ص ٣٣) - .

تلك هى أرقام التعداد للنفوس ..

● أما عدد الكنائس - فى مصر - والذى يدور حوله هو الآخر لغط كثير - فهو - وفق إحصاء سنة ١٩٩٦ م - ٢,٤٠٠ كنيسة .. أى أن هناك كنيسة لكل ١٢٥٠ مواطن مسيحى - (صحيفة «الدستور» عدد ١٨ يونيو سنة ١٩٩٧ م) - ..

وهى نسبة تكاد تكون مساوية لنسبة المسلمين - فى مصر - إلى مساجدها .. فهناك مسجد لكل ١٢٢٧ مواطنا مسلما .. - (أنور محمد «السادات والبابا» ص ٢٠٢ طبعة القاهرة) .

● أما الوزن الاقتصادى والاجتماعى لأقباط مصر ، فإنه يبلغ أكثر من خمسة أضعاف نسبتهم العددية !!

فنسبتهم العددية هي أقل من ٦٪ من السكان ، بينما يملكون أكثر من ربع ثروة مصر !! .. يملكون ويمثلون :

- ٢٢,٥٪ من الشركات التي تأسست بين عامي ١٩٧٤ م و ١٩٩٥ م ..

- و ٢٠٪ من شركات المقاولات في مصر ..

- و ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية ..

- و ٦٠٪ من الصيدليات ..

- و ٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة ..

- و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية .. وغرفة التجارة الألمانية ..

- و ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين) .

- و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين ..

- وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين في مدينتي السادات والعاشر من رمضان ..

- و ٢٥٪ من المهن الممتازة - الصيادلة والأطباء والمهندسين والمحامين .. والصحفيين والبيطريين ..

أي أن الـ ٥,٩٪ من السكان - الأقباط - يملكون ما يتراوح بين ٣٥٪ و ٤٠٪ من ثروة مصر وامتيازاتها !! .. - (تقرير «روز اليوسف» ، و «اتحاد المهن الطبية» ، و «اتحاد المقاولين» ،

و «مجلة المختار الإسلامى» عدد ١٥ ربيع الأول سنة ١٤١٩ هـ
يوليو سنة ١٩٩٨ م) - .

هذا عن الوزن فى الثروة والوجاهة والامتيازات . .

● فإذا علمنا أن أقباط مصر لا يعانون من أى من المشكلات
والهموم الكبرى التى تطحن سواد الشعب المصرى - مشكلات
وهموم : الأمية . . والبطالة . . وسكنى المقابر والعشوائيات . . إلخ
- أدركنا أن «الهموم» فى مصر هى من نصيب المسلمين ، وليس
من نصيب الأقباط . . وتذكرنا كلمة شيخنا محمد الغزالى - عليه
رحمة الله - :

«إن أقباط مصر هم أسعد أقلية فى هذا العالم الذى نعيش فيه» !

التعددية : ثمرة إسلامية

لا نغالى إذا قلنا إن «التعددية» هي ثمرة إسلامية ارتبطت برسالة الإسلام وتجسدت في حضارته .. لأن التعددية هي معيار ارتقاء الإنسان ، عندما يقبل الآخر فيتعاش معه ، وعندما ينضج فيبصر ، إلى جانب عوامل وسمات الاختلاف ، عوامل وسمات الوحدة والاتفاق ، وعندما يبلغ به النضج الحد الذي يرى فيه ضرورة الاختلاف ، كالاتفاق ، لأن التنوع والتعدد زينة للحياة وإغناء للأحياء ، فهو - كالاتفاق - فطرة إنسانية ، وضرورة من ضرورات الحياة ! ..

ولأن هذا الطور من فكر البشر هو طور النضوج ، ولأن الإسلام قد ختم رسالات السماء إلى الإنسان عندما بلغت الإنسانية سن الرشد فلقد ارتبطت التعددية بشريعة الإسلام وأمتة وحضارته ..

فقبل الإسلام ، وحتى في بلاد كمصر ، اشتهرت بالتسامح والانفتاح الحضارى والتعاش مع الآخرين والتأثر بهم ، وجدنا الديانة التوحيدية لـ «أخناتون» (١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق . م) تدمر معابد «أمون» ، وتضطهد كهنتها وتطارد أتباعها في كل مكان .. فلما انتصرت «الأمونية» على «الأخناتونية» بادلتها اضطهاداً باضطهاد ، حتى اجتشتها وطوت صفحاتها من الوجود ..

وعندما دخلت النصرانية إلى مصر ، شن أقباطها النصراني حملة إبادة ضد ديارتها القديمة ، فهدموا معابدها ، ودمروا هياكلها ، وأحرقوا مكتباتها ، وسحلوا كهنتها وفلاسفتها ! ..

وكذلك صنعت مصر - الدولة الرومانية الوثنية - بنصارى الأقباط المصريين . . بل لقد استمر الاضطهاد لهم حتى بعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية ، ذلك أن اختلاف المذهب - داخل النصرانية - كان مصدر اضطهاد وإبادة من الملكانيين البيزنطيين لليعاوية المصريين . . حتى ليؤرخ نصارى مصر حتى اليوم بعصر شهدائهم ، الذين استشهدوا على يد نصارى مثلهم مجرد الاختلاف فى المذهب! . . فلم يسمع مذهب مذهباً آخر حتى داخل الدين الواحد! . .

بل لقد صنع المصريون النصارى ذلك الاضطهاد مع بعضهم البعض ، فاضطهدت الأرثوذكسية - التى شكل اثناسيوس (٢٩٥ - ٣٧٣ م) مذهبها - اضطهدت «الآريوسية» الموحدة - نسبة إلى «أريوس» Arius (٢٨٠ - ٣٣٦ م) - وطاردت أنصارها ، حتى أزالتها من الوجود! . .

فكان تاريخ الدين والتدين خالياً من سماحة التنوع ورحابة صدر التعددية ، حتى ارتفعت فى مصر رايات الإسلام ، فأعلن عمرو بن العاص (٥٠ ق . هـ ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤ م) الأمان الدينى لكل المتدينين ، وأمن المضطهدين من قبض مصر ، فعاد الهاربون فى الصحارى والمغارات ، ورد إليهم الإسلام الحق فى حرية الاختيار للدين وللمذهب ، بل ورد إليهم كنائسهم المغتصبة ، فكان الإسلام أول دين يؤسس ويحرر دور العبادة للمخالفين! . . وكان قرآنه أول كتاب دين لا يتحدث عن الحفاظ على المساجد وحدها بل يضع ترتيبها - وفق التاريخ - فى نهاية دور عبادة الملل والشرائع ﴿ ولولا دفع الله الناس

بعضهم بعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيراً» (١).

هذا عن مصر ، التي يضرب المثل بشعبها في التسامح الدينى
والتعايش بين المختلفين ..

وفى الغرب الرومانى ، والولايات الشرقية الرومانية ، كان
« الاستفراد » ، ورفض التعددية منهاجاً متبعاً .. فالوثنية الرومانية
تضطهد النصارى ، وتلقى بهم أحياء إلى الأسود طعاماً ! ..
وعندما تدّين الرومان بالنصرانية صنعوا نفس الاضطهاد مع
الوثنيين ! .. بل ومع النصارى الذين اختلفوا معهم فى المذهب ! ..
وفى كل عهودهم - الوثنية .. والنصرانية - مارسوا الاضطهاد مع
اليهود ، إبادة وتهجيراً ، وهدماً للمعابد ، وتحويل أماكنها إلى
مجمعات للنفايات والقاذورات ! ..

ولقد استمر هذا الإكراه والقهر فى ربوع الحضارة الغربية ،
وامتداداتها ، طوال تاريخها ، سُنّة سيئة مرعية ومتبعة إلى حد
كبير .. ويكفى أن نطالع مرجعاً علمياً واحداً ، كتبه مشرق
منصف ، هو « سير توماس . و . أرنولد » (١٨٦٤ - ١٩٣٠ م) لنرى
هذه القسمة والخصوصية الحضارية الغربية ، تقابلها وتناقضها
سماحة الإسلام - المؤسسة على التعددية - إزاء الديانات
الأخرى ومعتنقيها ..

(١) الحج ٤٠ .

فشارلمان (٧٤٢ - ٨١٤ م) فرض النصرانية على السكسونيين
 بحد السيف . . وفي الدانمرك استأصل الملك كنوت tunc
 الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب . . وفي بروسيا
 فرضت جماعة إخوان السيف bmothenen of the sward
 المسيحية على الناس بالسيف والنار . . وفي ليقونيا ، فرض فرسان
 drdo fatrumm militine christ النصرانية على الشعب
 فرضاً . . وفي جنوب النرويج ، ذبح الملك أولاف ترايجفيسون كل
 من أبى اعتناق المسيحية ، أو قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم
 وشردهم ، حتى انفردت النصرانية بالبلاد . . وفي روسيا فرض
 فلاديمير vladimir عام ٩٨٨م النصرانية على كل الروس ، سادة
 وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، غداة اعتناقه لها ! . . ولم يُعترف فيها
 بإمكانية تعدد الأديان إلا في مرسوم صدر عام ١٩٠٥ م ! . . وفي
 الجبل الأسود - بالبلقان - قاد الأسقف الحاكم دانيال بتروفتش
 d. petrovich عملية ذبح غير المسيحيين - بمن فيهم من المسلمين
 - ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣ ! . . وفي المجر ، أرغم الملك شارل
 روبرت غير المسيحيين على التنصر أو النفي من البلاد عام
 ١٣٤٠م . . وفي أسبانيا - قبل الفتح العربى - كان المجمع السادس ،
 فى طليطلة ، قد حرم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكي ، وأقسم
 الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة !

وحينما امتد نفوذ ونهج الحضارة الغربية هذا ، شهد التاريخ هذا
 القهر والاضطهاد والإكراه . . فاليعاقبة ، فى مصر والشرق ،

اضطهدهم الأرثوذكس الملكانيون ، بالقتل والنفي والتشريد . . وقتل
جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) مائتى ألف من القبط فى مدينة
الاسكندرية وحدها ، حتى اضطر من نجا من القتل إلى الهرب فى
الصحراء . . وفى أنطاكية حدث نفس القهر والاضطهاد لغير
المسيحيين ، ولعتنقى غير مذهب الدولة الرومانية من المسيحيين ! . .
وفى الحبشة ، قضى الملك سيف أرعد (١٣٤٢ - ١٣٧٠م) بإعدام
كل من أبى الدخول فى المسيحية ، أو بنفيهم من البلاد . . وصنع
ذلك الملك جون فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ! . .
ناهيك عن مأساة مسلمى الأندلس على يد فرديناند وإيزابيلا ! . .

لقد سنت الحضارة الغربية سنة الإكراه فى الدين ، واتخذت
القهر - فى أبشع صوره - سبيلاً لانفراد المسيحية بساحة التدين ،
بل وانفراد مذهب واحد من مذاهبها بعقائد الذين أكرهوا على
« الإيمان » ! . . وكان شعارها كلمات « الوصية » المنسوبة إلى
القديس لويس (١٢١٤ - ١٢٧٠م) والتي تقوم : « عندما يسمع
الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء إلى سمعتها فإنه
ينبغى ألا يزود عن تلك الشريعة إلا بسيفه ، الذى يجب أن يطعن
به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء » ^(١) ! . .

فنحن ، إذن ، أمام « خصوصية غربية » ، اعتمدت سبل القهر والإكراه

(١) أرتولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٣٠ - ٣٢ - ٧٢ - ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٤١

- ١٤٣ - ١٥٤ - ١٥٦ - ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٧٤ - ٢٧٦ - . ترجمة د . حسن إبراهيم

حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النجراوى . مطبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

لتوحيد المعتقد والمذهب الدينى ، حتى لقد خلعت مواطنها المسيحية من
الأقليات الدينية ، التى هى شهادة التسامح والتعايش بين الديانات . .
فالاستفراد الدينى - بل والمذهبى - كان هو المنهج السائد . . ولم
تعرف التعددية طريقها إلى تلك المجتمعات ، إلا بعد أن تعلمتها
من « نظام الملل » العثمانى ، فى العصر الحديث ! . .

أما الإسلام ، فمنذ أن ارتفعت راياته على هذه الولايات ، وجدنا
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومعه صحابة رسول الله ﷺ ،
عندما دخل القدس (١٥ هـ ٦٣٦ م) وعقد لأهلها « العهد العمرى »
الذى قنن حرية الدين ، وحق الاختيار الدينى ، ونهج التعددية . .
وجدناهم يفرشون أرديتهم ويحملون عليها النفايات والقاذورات التى
وضعها الرومان فى مواطن العبادة ، ويعيدون لها طهرها وقديسيتها ،
بل ويتتبعون هذه الأماكن التى سبق وعُبد فيها الله ، وفق مختلف
الشرائع ، فيقيمون فوقها المساجد والمحاريب التى تتلى فيها آيات الله
﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ
تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢) ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ (٣) ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٤) . .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) البقرة : ٢٨٥ .

(٤) البقرة : ٢٨٥ .

فبالإسلام ، بدأ فجر التعددية فى تاريخ الإنسان . . لأنه الشريعة
التي علق إيمان المؤمن بها على الإيمان بكل الرسل والرسالات . .
ولم يقف الإسلام بالتعددية والتنوع والاختلاف عند حدود «الحق
الإنسانى» - الذى يجوز التنازل عنه ! . . وإنما ارتفع بها إلى مقام السنة
الإلهية والقانون الربانى الذى لا تبديل له ولا تحويل . . فهى القاعدة
والسنة الكونية والنهج الحصارى الذى أراده الله . . ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ (١) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَإِخْتَلَفَ الْأَلْسِنَةَ وَالْأَلْوَانَ كُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ﴿ يَا
أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣) وصدق الحديث النبوى
على هذه الآيات القرآنية : «الأنبياء إخوة لعلات - (أمهات
متعددات) - دينهم واحد ، وأمهاتهم شتى» (٤) .

وقننها الدستور الأول للدولة الإسلامية الأولى : « . . وأن يهود أمة
مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وبينهم النصيح
والنصيحة والبر دون الإثم » (٥) .

(١) المائدة : ٤٨ . (٢) الروم : ٢٢ . (٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) رواء البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .

(٥) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٩ ، ٢٠ . جمع

وتحقيق : د . محمد حميد الله . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

وجسدتها الحضارة الإسلامية واقعاً معيشاً .. فعاشت وتعايشت ،
وشاركت في الإبداع الحضارى كل ألوان التنوع والتعددية ..

ففى الإطار الإسلامى الأوسع عاشت التمايزات القومية ، تحدد
اللغات دواثرها .. وتعايشت التمايزات الدينية - سماوية ووضعية -
تحدد الشرائع دواثرها وانتماءاتها ..

وفى الإطار العربى الإسلامى وجدنا ونجد خارطة التعددية فى
الأقوام ، يتجاور فيها - مع العرب - : الأكراد والبربر ، والأرمن
والأراميون ، والسوريان والتركمان ، والشركس ، والأتراك ، والإيرانيون ،
والنوبيون ، والزنوج واليهود الغربيون .. إلخ ..

وعلى خارطة التعددية فى الملل والشرائع والمذاهب الدينية ، وجدنا
ونجد : اليونان ، الروم ، الأرثوذكس ، والنساطرة الآشوريون ، والأقباط
الأرثوذكس ، واليعاقبة الأرثوذكس ، والأرمن الأرثوذكس ، واليونان
الروم الكاثوليك ، والسريان الروم الكاثوليك ، والأرمن الروم الكاثوليك ،
والأقباط الروم الكاثوليك ، والكلدان الروم الكاثوليك ، والموارنة الروم
الكاثوليك ، والبروتستانت ، والإنجيليون .. واليهود الريانيون
الأرثوذكس ، واليهود القراؤون ، واليهود السامريون ، والصابئة ، واليزيدية
والشوابك ، والبهاية ، والديانات القبلية الزنجية الأرواحية .. إلخ ..

وعلى خارطة التعددية فى المذاهب الإسلامية - الكلامية والفقهية -
السنة بمذاهبها ، والشيعة بمذاهبها .. فهناك : الأحناف ، والمالكية ،
والشافعية ، والحنابلة ، والجعفرية ، والزيدية ، والإباضية ، والظاهرية ،
والإسماعلية ، والدروز ، والعلويون (النصيرية) .. إلخ ..

هكذا ، تجسدت فى خارطة الحياة الإنسانية ، بالحضارة

الإسلامية : أمة واحدة ، ضمت كل ألوان التنوع والتعدد
والاختلاف في الفروع - التي تكون لبنات البناء الواحد لأمة
الإسلام - المتحدة في العقيدة والشريعة والحضارة ودار
الإسلام . . والمتنوعة فيما عدا ذلك من السمات والقسمات ! . .
تلك هي قصة الاقتران بين التعددية والإسلامية ، كأمة وحضارة . .
كما عرضت لها وقائع التاريخ^(١) .

(١) انظر تفصيل ذلك بكتابنا (الإسلام والتعددية) طبعة دار الرشاد . القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

◆◆ الاختراق الاستعماري من خلال الأقليات ◆◆

لكننا .. ومنذ الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، نشهد مخططاً معادياً لوحدة الأمة ، يريد أن يحوّل «نعمة التعددية» إلى «نقمة» ! وأن ينتقل بطوائف الأقوام والممل والمذاهب من «لبنات» في بناء الأمة الواحدة إلى «ثغرات» في جدار الأمن الوطني والقومي والحضارى ..

بدأ ذلك المخطط بمحاولات بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) مع نفر من أقباط مصر ، إبان الحملة الفرنسية عليها (١٢١٣ هـ - ١٨٩٧ م) .. عندما أغرى جماعة من «أراذل الأقباط» - كما سماهم الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ - ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) .. فأقاموا فيلقا قبطيا ، شارك مع الجيش الفرنسى فى القهر الاستعماري لمصر وفى إخماد ثوراتها وانتفاضات مدنها وقراها ضد الغزاة .. وكانت قيادة هذا الفيلق «للمعلم» يعقوب حنا (١١٥٨ - ١٢١٦ هـ - ١٧٤٥ - ١٨٠١ م) - الذى نبذته كنيسة القبطية .. وجعله الفرنسيون «جنرالاً»! .. وسماه الجبرتي «يعقوب المعلمين» ! ..

ولقد استهدفت هذه المحاولة البونابرتية - وحدة الأمة ، عندما أرادت سلب مصر - باسم «الاستقلال» - عن محيطها العربى والإسلامى ، وقطع روابطها بهويتها الحضارية وتراثها الإسلامى ، وذلك بإلحاقها بالغرب ، وإحلال «التشريعات التى ترضى عنها فرنسا» محل شريعة الإسلام - التى تمثل سمة من سمات وحدة الأمة

الإسلامية-^(١) . . وكانت تلك أقدم محاولات التفتيت للأمة في عصرنا الحديث .

وتزامنت مع هذه المحاولة ، دعوة بونابرت سنة ١٧٩٩م للطوائف اليهودية - التي نعمت في الحصار الإسلامية بما لم تحلم به في حضارة أخرى - دعوته لها كي تتحالف مع جيشه الغازي ومشروعه الاستعماري ، فتقوم بدور «ثغرة الاختراق» و «موطن القدم» ، وذلك مقابل تمكينهم من فلسطين . فأصدر بونابرت نداءه لهذه الطوائف اليهودية ، أثناء حصاره لمدينة «عكا» . . فقال :

«من نابليون بونابرت ، القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .
أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد . . انهضوا بقوة : أيها المشردون في التيه . . لا بد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الحزى الذي شل إرادتكم لألفى سنة . .

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل . . إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به . . قد اختار القدس مقراً لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة ، التي استهانات طويلاً بمدينة داود وأذلتها . .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ، إن الأمة الفرنسية . . تدعوكم إلى إرثكم بضمائنها وتأييدها ضد كل الدخلاء» . .^(٢) !!

(١) د . أحمد حسين الصاوي (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣ - ١٢٢ مطبق ٦ ، ٧ ، ٨ - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

(٢) محمد حسين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) الكتاب الأول ص ٣١ ، ٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م .

فكما بدأ المشروع الاستعماري الغربي فتح ثغرات الاختراق والتفتيت على جبهة أقباط مصر .. بدأ فتح ثغرة ثانية على جبهة الطوائف اليهودية .. ساعياً إلى تحويل «نعمة التعددية» إلى «نقمة التشرذم والتفتيت» ! ..

وبعد هزيمة مشروع بوناپرت .. واصلت إرساليات التنصير الديني والتفريب الثقافي - الفرنسية - محاولات الاختراق والتفتيت ، بالعمل على تحويل بعض الطوائف والمذاهب والملل إلى ثغرات اختراق تفتت وحدة الأمة ، وتهدد أمنها الوطني والقومي والحضاري .. فمدارس الإرساليات الفرنسية في الشام ، استهدفت - كما عبرت عن ذلك مراسلات قناصلهم - «جعل سوريا - (أى الشام الكبير) - حليفاً أكثر أهمية من مستعمرة» ! و «تأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة» ! ، وتحويل الموارنة إلى «جيش متقن لفرنسا في كل وقت» ! ، وذلك وصولاً إلى «جعل البربرية العربية - (كما قالوا) ! - تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوربا»^(١) !!

وما حاوله الفرنسيون مع الموارنة ، حاوله الإنجليز مع الدروز ، فى ذات التاريخ ! .. وحاولوه مع اليهود ، عندما أرادوا استخدامهم فى فلسطين سداً أمام مشروع مصر ، بقيادة محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م) ، لتجديد شباب الشرق ، وعلاج أمراض الدولة

(١) من مراسلات القناصل - محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - بباريس - لسنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ م انظر د . محمد عمارة (هل الإسلام هو الحل؟ لماذا .. وكيف؟) ص ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

العثمانية . . فكتب وزير الخارجية الإنجليزي « بالمرستون » إلى سفيره في « استانبول » اللورد « بونسونبي » في ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠ م ، يقول له : « عليك أن تقنع السلطان وحاشيته . . بأنه إذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية السلطان ومباركته إلى فلسطين ، فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له ، كما أنه سوف يكون حائلاً بين محمد علي أو أي شخص آخر يخلفه وبين تحقيق خطته الشريرة في الجمع بين مصر وسوريا . . »^(١) !!

فالهدف هو التفتيت للأمة ، بتوظيف اليهود ضد « الجمع بين مصر وسوريا » ! . .

كذلك ، سعى الإنجليز إلى ماسبق وسعى إليه بونايرت - فمقاصد المشروع الغربي واحدة . . مع اختلاف المحتكر للثمرات ! . . وذلك عندما استهدفوا علاقة أقباط مصر بمسلميها . . عن طريق العداء لللاتنين ، ومحاولات ضرب الجميع . . وذلك بإقامة قواعد اختراق للتنصير ، وفق المذاهب النصرانية الغربية تارة ، وبغرس وتنمية الشقاق الطائفي مع المسلمين تارة أخرى . . وبالعداء لوحدة الأمة في كل الأحيان - فاللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) - المعتمد البريطاني في مصر - تزعمه وحدة الأمة - أقباطها ومسلميها - في منظومة القيم ، حتى ليتعذر التمييز بين القبطي والمسلم ، فينتقد دينيهما ! ، ويحدد أن العدو بالنسبة له هو الطابع الشرقي للحضارة ، الذي يميزها عن الحضارة

(١) محمد حسين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) الكتاب الأول . ص ٤٤ ، ٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ .

الغربية الغازية .. فيقول : «إن مسيحية القبطى محافظة -
(جامدة) - بقدر ما هو إسلام المسلم . والقبطى غير قابل للتغيير
- (التقدم) - .. وهذا راجع « لا لأنه قبطى ، بل لأنه شرقى ،
ولأن ديانتة التى تسمح بالتقدم قد حوصرت بأخلاط معادية ..
وإذا كان المسلم لم يصبح مسيحياً على أى وجه من الوجوه ،
فإن القبطى قد أصبح مسلماً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه
فى المسلك الأخلاقى واللغة والروح»^(١)!

فعدو كرومر - المعتمد البريطانى للاستعمار الإنجليزى فى مصر
- هو وحدة الأمة والحضارة ، التى جعلت الجميع شرقيين ،
بصرف النظر عن الملل والشرائع ، والتى جعلت النصرانى المصرى
متوحداً مع المسلمين فى المسلك الأخلاقى واللغة والروح ! ..

* * *

وعندما أخذ مخطط بونايرت مع اليهود - الذى تبناه الإنجليز إبان
تصاعد دورهم الاستعمارى فى الوطن العربى - .. عندما أخذ هذا
المخطط طريقه إلى التطبيق فى أرض الواقع .. عبر وعد بلفور سنة
١٩١٧ م .. والانتداب البريطانى على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨ م) ..
وقيام الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨ م .. أصبح لهذه الدولة -
كقاعدة غربية فى قلب وطن الأمة - مخططات للتفتيت
والتفكيك ، والذى يستهدف إلغاء الأمة ، وتحويلها إلى ركام من
الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأقوام والأعراق ..

(١) كرومر (مصر الحديثة) - والنص فى : محمد السماك (الأقليات بين العروبة
والإسلام) ص ٩٣ - طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

ولأن الإسلام هو عامل التوحيد الأول لهذه الأمة ، فلم يقف مخطط التفاتت الصهيوني عند دائرة الأمة العربية ، وإنما امتد ليشمل عالم الإسلام ، من شبه القارة الهندية إلى المغرب الأقصى على شاطئ الأطلسي ! .. فكانت الخطة التي صاغها المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» Bernard Lewis . . والتي نشرتها مجلة Executive Intelligence researchproject - التي تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - . . والتي يخطط فيها « لتقسيم الشرق إلى دويلات اثنية أو مذهبية . . وبحسب تلك الخطة يدعو برنارد لويس إلى :

١ - ضم إقليم بلوشستان الباكستان إلى مناطق البلوش المجاورة في إيران ، وإقامة دولة بلوشستان .

٢ - ضم الإقليم الشمالي الغربي من الباكستان إلى مناطق البوشتونيين في أفغانستان ، وإقامة دولة بوشتونستان .

٣ - ضم المناطق الكردية في إيران والعراق وتركيا ، وإقامة دولة كردستان .

٤ - إن اقتطاع المناطق الكردية والبلوشية من إيران ، يفتح ملف التقسيم الداخلي لإيران ، في ضوء الواقع الإثنى ، مما يحقق إقامة الدويلات التالية :

أ - دويلة إيرانستان .

ب - ودويلة أذربيجان .

ج - ودويلة تركمانستان .

د - ودويلة عربستان .

٥- إقامة ثلاث دول في العراق:

- أ- إحداهما كردية سنية في الشمال .
- ب - والثانية سنية عربية في الوسط .
- ج - والثالثة شيعية عربية في الجنوب .

٦- إقامة ثلاث أو أربع دويلات في سوريا:

- أ - منها واحدة درزية .
- ب - وثانية علوية (نصيرية) .
- ج - وثالثة سنية .

٧- وتقسيم الأردن، إلى كيانين:

- أ - أحدهما للبدو .
- ب - والآخر للفلسطينيين - (دون إشارة للصفة الغربية للأردن ..
التي ستضمها إسرائيل) - ! ..

٨ - أما العربية السعودية ، فسوف يحسن إعادتها إلى
الفسيفساء القبلية التي كانت فيها قبل إنشاء المملكة سنة
١٩٣٣ م ، بحيث لا يعود لها من الوزن سوى ما للكويك
والبحرين وقطر وإمارات الخليج الأخرى ! ..

٩- يعاد النظر في الجغرافيا السياسية للبحر، على أساس إقامة:

- أ - دويلة مسيحية .
- ب - ودويلة شيعية .
- ج - ودويلة سنية .

د - ودويلة درزية .

هـ - ودويلة علوية .

١٠- تقسم مصر إلى دولتين على الأقل :

أ - واحدة إسلامية .

ب - والثانية قبطية .

١١- يفصل جنوب السودان عن شماله، لتقام فيه :

أ - دولة زنجية مستقلة في الجنوب .

ب - ودولة عربية في الشمال .

١٢- يعاد النظر في الجغرافية السياسية للصغير العربي، بحيث تقام للبربر

أكثر من دولة حسب التوزع والانتماء القبليين.

١٣- كذلك يعاد النظر في الكيان الموريتاني، من خلال الصراع القائم بين

العرب والزنوج والمولدين.

وبعد هذا التخطيط ، الذي يضيف إلى «تجزئة وتفتيت (سيكس - بيكو) سنة ١٩١٦ م» أكثر من ثلاثين دولة ، عرقية ودينية ، ومذهبية ... يضيف برنارد لويس قوله : «إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع ، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق : على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة ، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها في هذه الدول ، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة ! ...

فالتخطيط لا يرى إلا الصراع .. وهو يريد تفتيت الأقوام والملل والمذاهب إلى دويلات ، ليس لها أدنى مقومات الدول .. كل ذلك

لحساب جعل الطوائف اليهودية ، التي لا تجمعها روابط الأمة الواحدة أو الحضارة الواحدة ، والتي لم تقم ، عبر تاريخها الطويل دولة متحدة . . كل ذلك لحساب أن تصبح هذه الطوائف الدولة المهيمنة على وطن العروبة وعالم الإسلام ! . .

نعم ، يفصح برنارد لويس عن هذا المقصد ، فيقول في هذا الخطط : «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات ، لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد ، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرق ومياه ونفط وزواج ووراثة . إلخ . . ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل ، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»^(١) ! . .

ففي سبيل العلو الإسرائيلي ، الموظف لحساب المشروع الغربي ، يكون التخطيط والتنفيذ لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية إلى ذرات من الأقوام والملل والنحل والمذاهب والطوائف والأعراق والألوان ! . .

ولم يقف الأمر عند التخطيط . . بل لقد أخذ هذا الخطط طريقه إلى التنفيذ بعد سنوات قليلة من قيام إسرائيل . . فبدأ السعى لتحويل عالمنا وأمتنا إلى «مجتمعات فسيفسائية» . . أو مجتمعات الموزايك Mosaic Society .

ففي سنة ١٩٥٤ م تقدم «دافيد بن جوريون» - أحد مؤسسي الدولة الصهيونية ، وأول رئيس لوزرائها- فأعلن : «أن الوقت يعتبر مناسباً لدفع

(١) محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٣١ - ١٣٣ ، ١٤٣ . طبعة

بيروت سنة ١٩٩٠ م .

لبنان - (أى الموارنة) - إلى المطالبة بإقامة دولة مسيحية . . وأن هذا المشروع سوف يؤدي ، حين نجاحه ، إلى إحداث تغيير أساسى وحاسم فى الشرق الأوسط ، وستبدأ مرحلة جديدة . . ! . .

وسجل «موشى شاريت» - (رئيس وزراء إسرائيل يومئذ) - فى مذكراته ، بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤ م تفصيل اقتراح «بن جوريون» : « من الواضح أن لبنان هو الحلقة الأضعف فى الجامعة العربية ، ومعظم الأقليات فى الدول العربية الأخرى هى أقليات إسلامية ، باستثناء الأقباط ، لكن مصر هى أكثر الدول العربية تماسكاً واستقراراً ، خاصة أن الأغلبية هناك تتشكل من مجموعة دينية واحدة ، ذات تراث واحد ، فيما لا تؤثر الأقلية القبطية بشكل جدى فى الوحدة السياسية والوطنية للدولة ، على عكس الوضع فى لبنان ، إذ يشكل المسيحيون الأغلبية عبر التاريخ اللبناني ، وهذه الأغلبية لها تراثها وثقافتها المختلفة عن تراث وثقافة الدول العربية الأخرى الأعضاء فى الجامعة العربية . (لقد كانت غلطة لا تغتفر من فرنسا أنها وسّعت حدود لبنان إلى ما هو عليه اليوم) ، إذ ضمن الحدود الحالية للبنان لا يستطيع المسلمون أن يفعلوا ما يريدون ، حتى لو كانوا يشكلون الأكثرية هناك ، وذلك خوفاً عن المسيحيين - (لست أدري ما إذا كانوا يشكلون الأكثرية بالفعل ؟) - . وهكذا تبدو مسألة خلق دولة مسيحية أمراً طبيعياً ، لها جذورها التاريخية ، وستلقى مثل تلك الدولة دعماً واسعاً من العالم المسيحى الكاثولىكى والبروتستانتى . .

كان مثل هذا الأمر يبدو شبه مستحيل فى الظروف العادية ،

وذلك لسبب رئيسي هو كون المسيحيين يفتقرون إلى الشجاعة والحافز من أجل تنفيذ مشروع كهذا . أما في حالة انتشار الفوضى والاضطرابات وظهور أعراض الثورة أو الحرب الأهلية ، فإن الأمر يصبح مختلفاً ، إذ يتصرف الضعيف كبطل في مثل تلك الأوقات . وبما أننا لا نستطيع الجزم بالنسبة للأمور السياسية ، نقول ربما كان الوقت الحالي هو الظرف المناسب لخلق دولة مسيحية مجاورة لنا ، ومن دون مبادرتنا ودعمنا القوي لا يمكن إخراج تلك الدولة إلى حيز الوجود . . . يبدو لي أن هذا هو واجبنا الأساسي ، أو على الأقل أحد الهموم الرئيسية لسياستنا الخارجية . وهذا يعني أن علينا أن نحسن استثمار الجهد البشري ، وعامل الوقت ، والعمل بكل الطرق الممكنة لإحداث تغيير أساسي في لبنان . يجب علينا تجنيد «ساسون» (١) وكل من يتكلم العربية بيننا ، ولن نتقاعس عن توفير الأموال اللازمة لإنجاح هذه السياسة . ولا بأس لو اضطرننا أحياناً إلى إنفاق الكثير دون التوصل إلى نتائج سريعة .

فلنركز جهدنا جميعاً على هذه القضية ، فقد لاحت في الأفق فرصتنا التاريخية ، ولن يغفر لنا التاريخ إضاعتها سدى . لنكن على ثقة بأن موقفنا هذا لا يتضمن أي تحد للقوى الكبرى ، إذن علينا أن نشرع في العمل فوراً وقبل قوات الأوان .

وفي سبيل الوصول إلى ما نبتغيه ، علينا فرض قيود على الحدود

(١) هو أحد الخبراء الصهاينة في اللغة العربية ، والعادات العربية . والد أولد سفير لإسرائيل في مصر بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية . ومؤلف كتاب (سبع سنوات في بلاد المصريين) ، وهو عن سنوات سفارته بمصر من سنة ١٩٨١ حتى سنة ١٩٨٨ م .

اللبنانية وتنظيمها ، ويستحسن اختيار بعض اللبنانيين في الداخل والخارج وتجنيدهم من أجل خلق الدولة المارونية . لست علي معرفة بأناس يمكننا التنسيق معهم في لبنان ، ولكن هناك طرقاً عديدة يمكننا بواسطتها تحقيق المشروع المقترح . . . »

إمضاء : دافيد بن جوريون

وفي تعقيب «موشى شاريت» على هذه «البروتوكولات» ، التي سطرها «بن جوريون» ، كتب - في ١٨ مارس سنة ١٩٥٤ م - يقول : «إننى بالتأكيد أحبذ تقديم المساعدات والدعم الفعال لأي شكل من أشكال تحريك الأقلية المارونية بهدف تثبيت وتقوية ميولها الانعزالية ، بغض النظر عن مدى فرص النجاح أمامها ، في حال وجود مثل تلك القاعدة يعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إيجابياً لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر ، ناهيك عن المتاعب التي يمكن أن يسببها للجامعة العربية ، كما أنه يخدم غرض صرف الأنظار عن تعقيدات الوضع العربي الإسرائيلي ، ويدكى النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال . . . وعلاوة على ذلك ، أود أن أؤكد على ضرورة إبقاء هذه الخطة في نطاق السرية الكاملة ، لأننا في حال تسربها وانتشارها - وهو خطر لا يمكن إنكاره في ظل الظروف الراهنة للشرق الأوسط - سنعاني خسارة لن يعوضها شيء ، ولو كان نجاح العملية ذاتها . . . !

هكذا ، ومنذ سنة ١٩٥٤ م ، بدأت إسرائيل تنفيذ مخطط :

- ١ - تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي . . . بدءاً بالأقلية المارونية . . .

ب - وتحريك الأقليات ، لدمير المجتمعات المستقرة ، وإذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال !! ..

وفي ضوء هذا المخطط ، علينا أن نراجع مظاهر الانعزال لدى الأقليات .. وألوان تحركاتها كأقليات ، وتزايد الحديث عن همومها - داخلياً وخارجياً - .. وتزايد الأضواء المسلطة عليها ، في عزلة عن مجتمعاتها !! .. علينا أن نراجع مظاهر وثمرات هذا المخطط عبر العقود التي تلت هذا التخطيط ! .. وأن نرصد الأفكار والنظريات والمؤسسات التي أحترفت وتحترف «صناعة عزل وتحريك الأقليات» .

وإذا كان «موشى شاريت» - رئيس وزراء إسرائيل يومئذ - قد كتب هذا التعقيب على مذكرة «دافيد جوريون» في مارس سنة ١٩٥٤ م .. فلقد عقدت القيادة الإسرائيلية اجتماعاً مشتركاً ، لوضع هذا التخطيط في التنفيذ - في ١٦ مايو سنة ١٩٥٤ م - « حضره كبار مسئولى وزارتى الدفاع والخارجية . وفيه طالب «بن جوريون» مرة أخرى ، بتحريك الأوضاع في لبنان ، والقيام بعمل ما ، خاصة أن الظروف ملائمة للغاية ، بسبب تزايد التوتر بين العراق وسوريا ، وتفاقم الأوضاع الداخلية التي تعاني منها سوريا ، وسارع «موشى ديان» إلى تأييد موقف « بن جوريون » ، بحماس بالغ .

كان أهم ما يشغل «ديان» هو العثور على ضابط لبنانى ، ولو برتبة

رائد ، للقيام بدور المنقذ للشعب المسيحي^(١) ، وفي حال إيجاد مثل هذا الشخص يكون دور إسرائيل العمل لاستتمالته بإظهار المودة تجاهه أو إغرائه بالأموال ، عندها سيتمكن الجيش الإسرائيلي من دخول لبنان واحتلال الأجزاء الضرورية من الحدود ، وأخيراً خلق كيان مسيحي يقيم علاقات وثيقة مع إسرائيل ، أما بالنسبة للمناطق الواقعة جنوب «الليطاني» فسوف يتم ضمها إلى إسرائيل نهائياً .

«بعد ذلك أوصى رئيس الأركان - «ديان» - بتنفيذ هذه الخطة في الغد ، ودون انتظار النتائج التي ينتظر أن يسفر عنها الوضع المتوتر بين دمشق وبغداد ...» .

ويعلق «موشى شاريت» - في مذكراته - على نتائج اجتماع ١٦ مايو ١٩٥٤ م ، فيقول : «في الوقت ذاته ، وافقت على تشكيل لجنة مشتركة من موظفي وزارتي الدفاع والخارجية لمعالجة الشؤون اللبنانية ، على أن تكون تلك اللجنة (كما طالب بن جوريون) تحت إشراف رئيس الوزراء .

كان رئيس الأركان - «ديان» - لم يزل مصراً على رأيه ، بضرورة العثور على ضابط لبناني لاستخدامه كواجهة لتنفيذ أغراضنا فيتمكن الجيش الإسرائيلي عندها من الاستجابة لنداء الإغاثة المنطلق من لبنان ، ويهرع لتحريره من الاضطهاد الإسلامي . لن تكون تلك العملية سوى مغامرة جنونية ، لكن علينا أن نعمل لمنع المضاعفات الخطيرة ، وعلى اللجنة أن تكلف بمهمة القيام

(١) لاحظ أن المسيحيين ، يومئذ في لبنان كانوا يهيمنون على مختلف ميادين وقطاعات ومؤسسات الدولة والمجتمع ...

بالدراسات ، وأن تعمل بحذر وتعقل لتوجيه وتشجيع الدوائر
المارونية الرافضة للضغوط الإسلامية كي تضع ثقتها بنا وتعتمد
علينا كلياً . . . !

ونحن عندما نقرأ هذا الذي كتبه «موشى شاريت» - في مذكراته -
بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ م . . فكأنما نشاهد ما تحسد على أرض
لبنان في السبعينيات والثمانينيات . . لقد استطاع التنفيذ الصهيوني
- بتحريك الأقلية المارونية نحو المزيد من الانعزالية . . وبخلق العمالة
في صفوفها - أن يحقق «البروتوكولات» التي سجلتها مذكرات
«موشى شاريت» في الخمسينيات !!^(١) . .

ولم يكن لبنان سوى نقطة البدء . . فمنذ الخمسينيات ، حدد
هذا المخطط التفتيتي أن الهدف هو «المنطقة» ، وليس فقط «لبنان»
فالهدف من تحريك الأقليات هو تدمير مجتماعتها المستقرة ، وإذكاء
النار في مشاعر الأقليات في المنطقة ، وتوجيهها نحو المطالبة
بالاستقلال . . تحقيقاً لواقع «المجتمعات الفسيفسائية أو مجتمعات
الموزايك Mosaic Society» . .

فبدأ ، منذ عقد الثمانينيات ، تطوير المخطط ، لتعميمه في الوطن
العربي ، كخطوة نحو الأفاق التي رسمها له برنارد لويس . . أفاق العالم
الإسلامي ، من شبه القارة الهندية إلى شاطئ الأطلسي ! . .

ففي ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١ م . . نشرت جريدة «معاريف»

(١) انظر : د . سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات في العالم
العربي) ص ٧٤٠ - ٧٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

الإسرائيلية ، نصّ محاضرة لوزير الدفاع الإسرائيلي «أرييل شارون» ، تحدث فيها عن آمال التفتيت - في الشمانينيات - لمجتمعات - كمصر - كان «بن جوريين» يستبعد إمكانية تفتيتها في الخمسينيات ! .. قال «شارون» : «إن إسرائيل تصل بحالها الحيوى إلى أطراف الاتحاد السوفيتى شمالاً ، والصين شرقاً ، وإفريقيا الوسطى جنوباً ، والمغرب العربى غرباً - (أى العالم الإسلامى كله) - فهذا المجال عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة . وفى الباكستان شعب «البلوش» ، وفى إيران يتنازع على السلطة كل من الشيعة والأكراد ، والمسألة الأرمنية ، أما فى العراق فمشكلاته تندرج فى الصراع بين السنة والشيعة والأكراد ، فى حين أن سورية تواجه مشكلات الصراع السنّى العلوى ، ولبنان مقسوم على عدد من الطوائف المتناحرة ، والأردن مجال خصص لصراع من نوع : فلسطينى - بدوى ، كذلك فى الإمارات العربية ، وسواحل المملكة العربية السعودية الشرقية ، حيث يكثّر الشيعة من ذوى الأصول الإيرانية ، وفى مصر جو من العداء بين المسلمين والأقباط ، وفى السودان حالة مستمرة من الصراع بين الشمال والجنوب المسيحى - الوثنى ، أما فى المغرب فالهوة ما بين العرب والبربر قابلة للاتساع»^(١)

فكأنه بعيد قراءة مخطوط التفتيت الذى وضعه «برناردلويس» للعالم الإسلامى بأسره ، مع حديث عن هذا العالم الإسلامى باعتباره «المجال الحيوى لإسرائيل» !! - وهو «جنون كاذب للعظمة» .. فما إسرائيل - فى هذا المخطط - إلا «أداة .. وشريك» ..

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وفي العام التالي - سنة ١٩٨٢ م - تعيد المنظمة الصهيونية العالمية الإفصاح عن هذا المخطط ، فتشتر مجلتها الفصلية (الاتجاهات) «كيفونيم» Kivunim - عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ م - تحت عنوان «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات» : «إن العالم العربي - الإسلامي ليس هو المشكلة الاستراتيجية الأساسية التي ستواجهنا خلال الثمانينيات ، وذلك على الرغم من أن له النصيب الأوفر في تهديد إسرائيل بسبب قوته العسكرية الآخذة في الازدياد . وهذا العالم ، بطوائفه وأقلياته وأجنحته ونزاعاته الداخلية التي تؤول إلى دمار داخلي مذهل - كما نشهد اليوم في لبنان وإيران وغير العربية ، والآن في سوريا أيضاً^(١) - غير قادر على التصدي لمشكلاته الأساسية الشاملة ، وبالتالي فإنه لا يشكل تهديداً فعلياً لدولة إسرائيل في المدى البعيد ، وإنما في المدى القصير ، إذ هناك أهمية كبرى لقوته العسكرية الآن .

فعلى المدى البعيد لا يستطيع هذا العالم البقاء ببنيتة الحالية في المناطق المحيطة بنا ، من دون تقلبات فعلية .

إن العالم العربي مبنى مثل برج ورقي مؤقت ، شيدته الأجانب (فرنسا وبريطانيا في العشرينيات) من دون اعتبار لإرادة السكان وتطلعاتهم . فقد قسم إلى ١٩ دولة ، كلها مكونة من تجمعات من الأقليات والطوائف المختلفة التي يناصب بعضها البعض العداء . وهكذا ، فإن كل دولة عربية - إسلامية تتعرض اليوم

(١) في تلك التاريخ كانت الحرب الطائفية في لبنان قائمة ، وكانت أحداث حماة بين جماعات إسلامية والحكومة مثارة ، وكانت إيران في حرب مع العراق ونزاع مع الأكراد .

خطر التفتت الإثنى - الاجتماعي في الداخل ، لدرجة أن بعضها يدور فيه الآن حروب أهلية .

إن صور الوضع (القومية - الإثنية - الطائفية هذه) من المغرب حتى الهند ، ومن الصومال حتى تركيا ، تشهد على انعدام الاستقرار ، والتفتت السريع في جميع أنحاء المنطقة المحيطة بنا .

وعندما نضيف إلى ذلك الصورة الاقتصادية ، فإننا ندرك إلى أي حد تقوم المنطقة بأسرها فعلا على برج من الورق ، من دون أي فرص للتصدي لمشكلاتها الخطرة .

إن مصر مفككة ومنقسمة إلى عناصر سلطوية كثيرة ، وليس على غرار ما هي الحال اليوم ، لا تشكل أي تهديد لإسرائيل ، وإنما ضمانا للأمن والسلام لوقت طويل ، وهذا اليوم في متناول يدينا .

إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبقى على صورتها الحالية ، بل ستقتفى أثر مصر في انهيارها وتفتتها ، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون - (!!)- إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر ، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية ، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن ، هي مفتاح هذا التطور التاريخي الذي أخرته معاهدة السلام ، لكنه لا يبدو مستبعداً في المدى الطويل .

إن الجبهة الغربية ، التي تبدو للوهلة الأولى معضلة ، هي أقل تعقيداً من الجبهة الشرقية ، حيث أصبحت ماثلة أمامنا اليوم جميع الأحداث التي كانت بمثابة أمنية في الغرب ، ذلك أن تفتت لبنان

بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره ، بما في ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية ، إذ أخذ ينحو منحى مشابها منذ اليوم .

إن تفتت سوريا والعراق لاحقاً إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية ، على غرار لبنان ، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل في الجبهة الشرقية في المدى البعيد ، إذ إن تشتت القوة العسكرية لهذه الدول هو اليوم الهدف المرسوم في المدى القصير ، وسوف تفتت سوريا وفق التركيب الإثنى والطائفي إلى عدة دول مثل لبنان حالياً^(١) ، بحيث تقوم على ساحلها دولة علوية - شيعية ، وفي منطقة حلب دولة سنية ، وفي منطقة دمشق دولة سنية أخرى معادية للدولة الشمالية ، والدروز سيشكلون دولة ، ربما أيضاً في الجولان عندنا^(٢) وطبعاً في حوران وشمال الأردن ، وستكون هذه ضمانات الأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل . وهذا الأمر في متناول يدنا اليوم .

إن العراق ، الغني بالنفط من جهة ، والذي يكثف فيه الانشقاق والأحقاد في الداخل من جهة أخرى ، هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل ، إن تفتت العراق هو أكثر أهمية من تفتت سوريا^(٣) ، فالعراق أقوى من سوريا ، وقوته تشكل في المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أي خطر آخر . وحرب عراقية -

(١) الإشارة إلى لبنان أثناء الحرب الطائفية . . وقبل اتفاق الطائف ، والتغلب على محنة الحرب .

(٢) الجولان السوري المحتل من قبل إسرائيل في حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م .

(٣) في ضوء هذه الأولويات يقرأ ما يحدث لوحدة العراق بعد حرب الخليج الثانية !!

سورية ، أو عراقية - إيرانية سوف تفتت العراق وتؤدي به إلى انهيار في الداخل قبل أن يصبح في إمكانه التأهب لخوض صراع على جبهة واسعة ضدنا ، وكل مواجهة بين الدول العربية تساعدنا على الصمود في المدى القصير ، وتختصر الطريق نحو الهدف الأسمى ، وهو تفتت العراق إلى شيع مثل سوريا ولبنان . وفي العراق سوف يكون التقسيم الإقليمي والطائفي متاحا ، كما كان الوضع في سوريا في العهد العثماني . وهكذا تقوم ثلاث دول (أو أكثر) حول المدن العراقية الرئيسية : البصرة ، وبغداد ، والموصل ، إذ تنفصل مناطق شيعية في الجنوب عن الشمال السني والكردي بأكثرية ، ولعل المواجهة الإيرانية العراقية تؤدي إلى ازدياد حدة هذا الاستقطاب اليوم .

إن شبه الجزيرة العربية بأسره هو مرشح طبيعي للانهيار ، وأكثر اقترابا منه ، بفعل ضغط داخلي وخارجي ، وهذا الأمر غير مستبعد في معظمه ، خصوصا في السعودية ، سواء أبقىت القوة الاقتصادية القائمة على النفط أم انخفضت في المدى البعيد . فالاضطراب والانهيار من الداخل هما مسار واضح وطبيعي في ضوء تركيبة الدول القائمة ، التي تفتقر إلى كيان .

إن الأردن هدف استراتيجي أتى في المدى القصير ، لكنه ليس كذلك في المدى الطويل ، لأنه لا يشكل أي تهديد فعلي في المدى الطويل ، بعد انحلال وتصفية الحكم المديد للملك حسين ، وانتقال السلطة إلى الفلسطينيين في المدى القصير . ليس هناك أي إمكان بأن يبقى الأردن قائما على صورته وبنيتة الحاليتين في المدى الطويل . وينبغي أن تؤدي سياسة إسرائيل ، حربا أو سلما ، إلى تصفية الأردن بنظامه الحالي ، ونقل السلطة إلى الأكثرية الفلسطينية ، فتبديل الحكم شرقي النهر ، سوف يؤدي أيضا إلى

تصفية مشكلة المناطق الأهلة بالعرب غربي النهر ، حرباً أم سلماً ،
 إن الهجرة من المناطق ، والجمود الاقتصادي - الديموجرافي فيها ، هو
 الضمانة للتغيير الوشيك على ضفتي النهر^(١) ، وعلينا أن نكون
 ناشطين من أجل تسريع هذا التغيير ، وفي وقت قريب .
 إنه ، في العصر النووي ، لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا
 التفكير ، ويجب من الآن فصاعداً ، بعشرة السكان ، وهذا دافع
 استراتيجي . فإذا لم يحدث ذلك ، فليس باستطاعتنا البقاء مهما
 كانت الحدود^(٢) . . . !!

ولم تغير حقبة التسعينيات - بما حملت من مشاريع
 «التسويات» بين العرب وإسرائيل - شيئاً من التخطيط
 الاستراتيجي الصهيوني لتفتيت وشرذمة العرب والمسلمين ، ولا
 متابعة تنفيذ هذا التخطيط . .

ففي ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢ م عقدت ندوة ، دعا إليها «مركز
 بارايلان للأبحاث الاستراتيجية» - التابع لجامعة بارايلان
 الإسرائيلية - شاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية - بواسطة
 «مركز الأبحاث السياسية» - التابع لها - وأسهم فيها باحثون من
 «مركز ديان» - التابع لجامعة تل أبيب - . . ندوة حول «الموقف
 الإسرائيلي من الجامعات الإثنية والطائفية في منطقة الشرق
 الأوسط» وطموحاتها وتطلعاتها الاستقلالية ، في ضوء ما حققه
 أكراد العراق !!! . .

(١) أي تهجير العرب من فلسطين إلى شرقي الأردن ، وتحقيق النقاء اليهودي على الأرض
 التوراتية . كما هو التخطيط الأول للصهيوني : أرض بلا شعب لشعب بلا أرض . .

(٢) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٠ - ١٤٤ .

أى أن حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١ م .. وما فتحته من أبواب
التمزق العربى والتشرذم الطائفى قد مثلت بالنسبة لخطط التفتيت
الصهيونى عامل تصعيد ، ومرحلة جديدة لدفع واقع عالمنا العربى
فى اتجاه «تنفيذ» التخطيط القديم ..

ولقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثاً ، تفصح عناوينها
- مجرد العناوين - عن المحتوى .. فمنها :

«تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للمجموعات العرقية
والإثنية ، والاعتبارات الكامنة وراءه» ..

و «حرب الخليج هل أنهت تقسيم لبنان ؟» ..

و «دعم إسرائيل للحركة الكردية ، قبل وبعد حرب الخليج» ..

و «ثورة الشيعة فى جنوب العراق ، أثناء حرب الخليج» ..

و «سوريا هل ستبقى دولة موحدة فى ظل انتعاش الاتجاهات
الانفصالية فى المنطقة والعالم ؟» ..

و «إسرائيل ونضال جنوب السودان من أجل الاستقلال
والحرية» ..

و «الاستقطاب بين المسلمين والأقباط فى مصر» ..

و «إسرائيل ونضال البربر فى شمال إفريقيا» ..

و «الشيعة فى أقطار الخليج (السعودية - البحرين - الكويت -
الإمارات - قطر) هل يشعرون كما تثار شيعة لبنان ؟ .. الموقف
الإسرائيلى والإيرانى» ..

و « إسرائيل ودول الجوار في إفريقيا : أثيوبيا - تشاد - السنغال » ..

و «العلاقات بين إسرائيل ودول الجوار المحيطة بالعالم العربي (تركيا - إيران - أثيوبيا) » ..

وفي هذه الأبحاث .. كشف عن صفحات قديمة في مخطط التفات ، تمت فيها «اتصالات» و «محاولات» صهيونية مع أفراد من الطوائف والملل والأقوام العرب والمسلمين ، سبقت قيام الدول الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ م ! ..

وتأكيد على موقع هذا المخطط من «المصالح العليا .. والقضايا المهمة في المجال الاستراتيجي لإسرائيل» ..

وحديث صريح عن «تبنى الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة سياسة تقوم على دعم الأقليات غير العربية (العرقية) والعربية الطائفية في الشرق الأوسط وتأييد طموحاتها ورغباتها ، سواء فيما يتعلق بالمساواة في الحقوق ، وحق تقرير المصير ، أو إقامة كيانات مستقلة ، وذلك انطلاقاً من الحلف الطبيعي القائم بين إسرائيل وهذه الأقليات .

ونحن لن نجانب الحقيقة - (والحديث من مقدمة أبحاث هذه الندوة) إذا قلنا إن هذا المفهوم قد تم تبنيه أيضاً من قبل الحركة الصهيونية وأجهزتها ، بدليل أن الوكالة اليهودية بدأت اتصالاتها بالزعماء الدينيين السياسيين المارونيين في عهد الاستيطان اليهودي في فلسطين - أي منذ الثلاثينيات والأربعينيات ..

وقد اتخذ هذا الموقف انطلاقاً من الإدراك بأن هذه الأقليات ،

وخاصة المارونيين في لبنان والأكراد في العراق والدروز في سوريا ،
والجماعات الأخرى في الأقطار العربية الأخرى ، هي شريكة في
المصير ، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام
والقومية العربية»^(١) .

وفي أبحاث هذه الندوة - التي تمثل حلقة التسعينيات في هذا
الخطط القديم - كشف عن حركة «الخط البياني» لتنفيذ هذا
الخطط ، نفهم منه :

* تراجع مجاحات التنفيذ في حقبة المد القومي العربي ، منذ
النصف الثاني لعقد الخمسينيات ، بسبب «تقبل الأقليات غير العربية
أو تعاضدها مع شعارات» هذا المد - الوحدوية والاجتماعية - ..

* وعودة الاتصالات الصهيونية مع دوائر من هذه الأقليات ،
في عقد السبعينيات ، لتراجع المشروع القومي ، بعد حرب سنة
١٩٦٧ .. « كما شهد عقد الثمانينيات تحولات كبيرة في تطور
الاتصالات مع تلك الأقليات والجماعات » .

* أما في حقبة التسعينيات «وأحداث الخليج والحرب التي
دارت في أعقابها» فلقد انتقل التنفيذ الصهيوني لهذا الخطط إلى
طور جديد .. فحرب الخليج «أدت إلى إيجاد ظروف جديدة
لتعميق الاتصالات ، وتوسيع دائرتها ، لتتحول هذه المرة إلى موقف

(١) ندوة الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في العالم العربي (ص ٦ .
ترجمة الدار العربية للدراسات والنشر . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م .

إسرائيلي ثابت يركز على ضرورة تقديم الدعم العسكري ، وعدم الاكتفاء بالدعم السياسى والمعنوى . . إن تطورات وتداعيات أزمة الخليج والحرب التى نشبت بسببها حثمت انتقال السياسة الإسرائيلية الثابتة فى دعم الأقليات إلى مرحلة الدعم والتأييد الفعلى والعملى . . تحقيقاً لمصلحة إسرائيل ، التى تقتضى أن تركز تلك الصراعات وتعمق ، لأن انقسام العالم العربى يعنى فى نهاية المطاف إضعافه وتشتت قواه وطاقاته التى كان يمكن أن يُعبئها ويحشدّها فى مواجهة إسرائيل . .»^(١) .

فالحديث عن «السلام» ، والدخول فى مشاريع «التسوية» قد صاحبها - وهذا ما يجب تدبره وتأمّله ملياً - تصاعد الخط البيانى لتنفيذ «الثوابت» الصهيونية لتفتيت الأمة ووطنها . . لأن المقاصد الصهيونية والغربية «ثوابت» وليست «متغيرات» . . إنها بعبارة «مخطط التسعينيات» : «مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية»!! . . ذلك أن أى طائفة أو جماعة تعادى القومية العربية (العدو الأول للشعب اليهودى) ، أو تبدى استعداداً لمحاربتها أو مقاومتها ، هى حليف وقوة لنا لتنفيذ سياسية الاستيطان والدولة التى مازالت فى مرحلة التكوين»!!^(٢) .

فالمشروع الصهيونى لازالت دولته - فى التسعينيات - «مرحلة التكوين» . . واكتمال هذا التكوين وثباته رهن بالخلاص من وحدة العرب ، حتى فى الأطر القطرية التى فرضها عليهم الاستعمار!! . .

(١) ، (٢) المرجع السابق - ص ٧ - ١٠ :

هكذا ، تحددت ووضحت الاستراتيجية :

* فالغرب قد جعل الصراع سبيله للهيمنة على العالم .. وهو قد جعل العالم الإسلامى هدفاً أول فى صراعه ضد الحضارات غير الغربية ..

* وإسرائيل : مشروع غربى ، وأداة غربية فى هذا الصراع الحضارى ، الذى تستخدم فيه كل أدوات الصراع ..

* والمخطط الصهيونى - القديم .. والذى بدأ تنفيذه - منذ الخمسينيات - فى لبنان - .. يستهدف تفتيت وتفكيك كل العالم الإسلامى ، وتحويله إلى ذرات عرقية وطائفية ومذهبية ، وذلك لتحقيق الأمن للهيمنة «الغربية - الصهيونية» فى المدى البعيد .. وبنص عبارة (استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات) : «فإن التفتيت هو ضمانة الأمن والسلام لإسرائيل فى المنطقة فى المدى الطويل .. وإذا لم يحدث ذلك ، فلا بقاء لإسرائيل ، مهما كانت الحدود» !

* وإذا كان المخطط قد بدأ بلبنان .. فإن ميدانه هو كل عالم الإسلام .. وللعراق أولوية فى مخطط التفتيت .. أما مصر فهى ضمان النجاح الصهيونى .. وبعبارتهم : « .. فمتى تفتت مصر تفتت الباقون » !! ..

* وهذا المخطط ينطلق من العمل على تحويل «نعمة التنوع والتعددية» ، فى العالم الإسلامى ، إلى «نقمة التمزق إلى ذرات» تذررها رياح العلو الصهيونى .. فهم يزعمون أن وحدة العرب

مصطنعة ، وأن العالم العربى «برج ورقى مؤقت» ، اصطنعته إنجلترا وفرنسا فى معاهدة «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦ م ، على غير إرادة من العرب . . بينما الحقيقة التى علمها الجميع أن «سيكس - بيكو» جزأت العالم العربى واستعمرته ، ولم تصطنع له وحدة مصطنعة! . . وأن إرادة العرب ، يومئذ ، كانت وحدة الولايات العربية العثمانية . . وهى إرادة حاربوا فى سبيلها ، وسقط منهم الشهداء دفاعاً عنها! . .

وهذا الذى تسميه مخططات التفتيت والتفكيك بـ «البرج الورقى» ، و «المجتمعات الفسيفسائية» ، و «مجتمعات الموزايك Mosaic Society» . . هو ، فى الحقيقة : التنوع والتعددية والتمايز ، الذى حافظ عليه الإسلام ، باعتباره سنة الله - فى الاختلاف - التى لا تبدل لها ولا تحوّل ، مع توظيف هذا التنوع وهذه التعددية لبنات فى بناء الأمة ، التى وحدها الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة والدار ، مع احتضان وحدتها للتنوع فى الملل والنحل والأقوام والمذاهب والأوطان والعادات والأعراق . .

فهذه الملل والنحل والأعراق والطوائف والمذاهب ، موجودة منذ قرون ، منها تبلورت الأمة الواحدة . . وجميعها أسهم فى صناعة الحضارة الواحدة ، وفى تجديدها وإحيائها ، وأيضاً فى الدفاع عنها ضد الغزاة . . فتنوعها ميزة ، ومصدر غنى وثراء ، وليس نقیصة ، ولا نقطة ضعف ، طالما ابتعدنا بها عن غلوى الإفراط والتفريط . . الغلو الذى لا يرى سوى التنوع والخصوصيات . . والغلو الذى لا يرى سوى الوحدة ، فينكر الخصوصيات! . .

وفى ظل تنوع بهذا الاتساع ، فى أمة بهذا الحجم ، وأمام تحديات على هذه الدرجة من الشراسة . لا يتصور عاقل خلو عالم الإسلام من المشكلات ، بل والتوترات . . . لكن القضية هى : ما هو الحل ؟ هل هو التفتيت والتفكيك إلى ذرات - فى عالم يسلك سبيل التكتلات ، ويتحدث عن صراع الحضارات ؟ - وفى ذلك الكارثة المحققة للجميع ؟ . .

أم التطبيق المعاصر والمتطور والخلاق للمنهج التاريخي : الجامع بين «التعددية» وبين «الوحدة» ، والذي تمثل التعددية فيه مصدر غنى وثراء ، بل وزهو نتيجته به على الحضارات الأخرى . . وذلك عندما يفنى «التنوع» هذه «الوحدة» الجامعة لأمة الإسلام ؟ . .

وإذا كانت هذه هى «المخططات الخارجية» - المعلنة - . . والتي وضعتها الغزوة الغربية لعالم الإسلام فى الممارسة والتطبيق ، قبل قرنين من الزمان - منذ حملة بوناپرت على مصر سنة ١٧٩٨ - وشارك فيها الكيان الصهيونى منذ ما يقرب من نصف قرن - . . فما هى انعكاسات هذه المخططات على «جبهتنا الداخلية» ؟ . . وما هى حظوظ هذا المخطط التفتيتي من النجاح على جبهات الملل والأقوام والمذاهب فى واقعنا - وواقعنا العربى الإسلامى على وجه الخصوص - ؟ . .

لا بد أن نعترف بأن مواطن عديدة من جبهاتنا الداخلية قد «رشحت» على ثقافات وتوجهات قطاعات منها آثار وتأثيرات من هذه المخططات !! . .

على جبهة البربر الأمازيغ

بدأت هذه المخططات فعلها منذ الاحتلال الفرنسي للمغرب العربي ، وخاصة في العقود الأولى من القرن العشرين . . .
فالبربر هم أكبر الجماعات القومية عدداً في الوطن العربي . .
جمعهم الإسلام بالعرب ، وسادت العربية - باعتبارها لغة القرآن والشرعة - أوساطهم الشعبية والعلمية . . لكن المخطط الاستعماري قد استهدف - وفق ما هو معلن منه بأقلام أصحابه - : فصل الإسلام عن العربية ، حتى لا يربط الإسلام البربر بالأمة العربية . .
وفصل العقيدة عن الشريعة - مع أنهما رتتا الإسلام - وذلك حتى ينتقل البربر من اللغة البربرية - غير المكتوبة . . والعاجزة عن تلبية حاجات العصر - إلى اللغة الفرنسية ، وحتى ينتقلوا من «الأعراف المحلية» إلى القانون الفرنسي ، فتتفك روابطهم مع العروبة ، ومع كامل الإسلام!! . . فإذا أصبح القانون علمانياً ، وأصبحت اللغة فرنسية ، فقد تم الفصل والتفتيت . .

يعلن عن ذلك المخطط الكاتب الفرنسي «فيكوريبيكيه» ، في كتابه (العنصر البربري) - الصادر سنة ١٩٢٥م - فيقول : «إننا نشاهد تغلب اللغة العربية في السهول ، حيث السكان العرب ، وهذا يمكننا تعليله بأن اللغة البربرية لا تُكتب ، وبأن اللغة العربية هي لغة القرآن . وقد لعبت «الكتاتيب» دوراً هاماً في الاستعراب . ولذلك ، فإن كل مجهوداتنا يجب أن تصب على تعليم البرابرة

الفرنسية ، بلا واسطة لغة أخرى . لقد هيأنا سنة ١٩٢٣م للمدرسة برنامجاً فرنسياً بربرياً له روح فرنسية كاثوليكية .. وهذه خطة حسنة لوقف التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة التفاهم ، ويمكننا بسهولة كتابة البربرية بالحروف الفرنسية ، كما فعلنا بالهند الصينية .

وإذا لم يمكننا عقد الأمل على رجوع البربر عن الإسلام ، ونبذهم لهذا الدين ، لأن جميع الشعوب لا تبقى بدون دين في مرحلة تطورها ، فيجب أن لا نخشى من ذلك ، خاصة إذا تمكنا أن نفصل بين الإسلام والاستعراب .. وفصل الدين عن القانون المدني ، مثلما حدث بإدخال تغييرات هامة سنة ١٩١٧م في قانون الأحوال الشخصية .. ولذلك يمكننا أن نحصر الإسلام في الاعتقاد وحده .. وعلى هذا لا يهمنا كثيراً أن تضم الديانة الشعب كله ، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها . فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرانية في قدايسها^(١)!! ..

فسلخ البربر عن الأمة ، مخططة : علمنة الإسلام .. وفرنسة اللغة .. فإذا أصبح القانون علمانياً ، وأصبحت اللغة فرنسية ، فلا خطر من «العقيدة الإسلامية» ولا من آيات قرآنية تتلى بعربية لا يفهمها المتفرنسون ، فمثلها كمثل قدايس كاثوليكي باللغة اللاتينية الميتة ! ..

وإذا كانت «الأعراف البربرية» ، بنظر الشريعة الإسلامية ، هي

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٥٨ ، ٥٩ .

مصدر من مصادر الأحكام . . فلقد خطط الفرنسيون لدمج الأعراف البربرية فى القانون الفرنسى ، بدلاً من دمجها فى الشرع الإسلامى ، لاستبعاد الشريعة الإسلامية ، لأنها رباط حياتى مَوْحَّد للأمة . . وعن ذلك كتب «جورج سوردون» - أستاذ الحقوق فى معهد الدروس العليا «بالرباط» - فى كتابه (مبادئ الحقوق العرفية المغربية) - الصادر بالرباط سنة ١٩٢٨م - يقول : «يجب جمع العادات البربرية . . لئلا تضيع فى الشرع الإسلامى . . إذ العرف ينمحي إزاء القانون . . والأولى أن نرى العرف البربرى يندمج فى القانون الفرنسى من أن نراه يندمج فى القانون الإسلامى ، لأن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية ، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد . .»^(١)!! . . .

وهذا «الفكر» ، الذى صاغه «الأساتذة» الفرنسيون ، مخططاً لسلخ البربر عن العرب والمسلمين ، لم يقف عند حدود «الفكر» . . وإنما وضعت سلطات الاحتلال فى الممارسة والتطبيق . .

«فالمقيم العام الفرنسى» فى المغرب - المارشال «ليوتى» - يصدر الأمر إلى وزارة العدل بالعمل على استبعاد اللغة العربية ، لأنها هى رباط البربر بالإسلام وأمتهم . . والعمل على الانتقال بالبربر من البربرية إلى الفرنسية مباشرة! . . فيقول فى هذا «الأمر» : «إنه خطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين

(١) المرجع السابق . ص ٥٧ .

العرب والبربر . ولا حاجة لنا في تعليم العربية للبربر ، فالعربية هي رائد الإسلام ، لأن هذه اللغة تُعَلِّم من القرآن ، ومصلحتنا هي أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام . وأما ما يتعلق باللغة ، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة^(١) !! ..

وتوجّه السلطات الاستعمارية في الرباط - «الإقامة العامة» - إلى الحكومة الفرنسية في باريس مذكرة - رقمها ٣٨٨٨ - وإشارتها ١١ - وتاريخها ١٣ يونيو سنة ١٩٢٧ م - تقول فيها : «إن مبدأ استقلال العرف البربري ودوائر اختصاصه عن الشرع الإسلامي ، يحقق أكبر مصلحة سياسية لفرنسا ، وإن إبعاد الشرع الإسلامي من جميع بلاد البربر بشكل نهائي ومطلق يسمح لنا في يوم قد لا يكون بعيداً بإنشاء نظام معقول للعدلية البربرية في اتجاه فرنسي خالص^(٢)» ! .

وكما تجسد هذا التخطيط لسلخ البربر من الانتماء للأمة : باستبعاد الشريعة الإسلامية واللغة العربية من حياتهم . كما تجسد هذا التخطيط في ميدان التعليم ، فلقد تجسد في ميدان القانون . . فصدر «الظهير - (المرسوم) - البربري» - في ١٦ مارس سنة ١٩٣٠ م - ليحل الأعراف والعادات المحلية محل الشرع الإسلامي ، حتى في الموارث والأحوال الشخصية - الأسرة - . . وذلك دمجاً للعرف البربري بالقانون الفرنسي ، بدلاً من الشريعة الإسلامية^(٣) !

(١) المرجع السابق . ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق . ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق . ص ٦٢ .

لكن أصحاب هذا المخطط التفتيتي - الذي حرصته وطبقته
حرب الاستعمار ومؤسساته - قد فاجأتهم خيبة الأمل في
الثمار والنتائج . . فلقد استعصت الروابط التي وجدت البربر في
كيان الأمة على التفكير : فشاركوا العرب ، من منطلقات عربية
إسلامية ، في مقاومة الاستعمار الفرنسي ، وانخرطوا جميعاً في
السعي لتحقيق الاستقلال الوطني ، وقدموا شهداء الحرية
والاستقلال جنباً إلى جنب دونما تمييز بين عرب وأمازيغ . . حدث
ذلك في الجزائر وفي المغرب على حد سواء ! . .

ومع ذلك ، وحتى بعد ثورات وانتفاضات الاستقلال والتحرر
الوطني ، واصل الاستعمار الفرنسي رعاية هذا المخطط
التفكيكي . . فجامعة «فانسان» - الفرنسية . . بباريس - تقيم في
سنة ١٩٧٦ م «الأكاديمية البربرية» . . وتحتضن فرنسا ، في
جامعاتها ومؤسساتها الثقافية والإعلامية نغراً من البربر ، الذين
انسحقوا في الحضارة الغربية ، وذابوا في الثقافة الفرنسية ،
وأصبحوا دعاة لما يسمى «البربريزم» - والذي يعني عملياً : أكثر
من رفض العروبة والإسلام . . يعني - فوق هذا - القفز من
«البربريزم» إلى «الفرنسة» . . وتحقيق ما قاله «ليوتى» عن «الانتقال
مباشرة من البربرية إلى الفرنسية» و «دمج العرف البربري في
القانون الفرنسي ، بدلاً من اندماجه في الشرع الإسلامى» - كما
قال «جورج سوردون» سنة ١٩٢٨ م - !! . .

فدعاة «البربريزم» ، الذين يحتقرون تراث العروبة والإسلام ،
لأنهم يرون في التراث البربري البديل العصري الكافل بالإقلاع

الحضارى! .. وإنما القضية عندهم ، هى الإلحاق والالتحاق بالغرب
والثقافة الفرنسية ..

والكاتب القصصى «مولود معمري» - وهو جزائرى بربرى - يعبر
عن هذا الاتجاه ، الذى يحقر من تراث العروبة والإسلام ، ويدعو
للانتلاق من «العهد الاستعمارى .. فيقول : «إن التراث العربى
الإسلامى قد تم تجريده من كل المصادر الحية للوجود .. إنه
شكل فارغ ، وهو فى أقل الأحوال سوءاً ، مجرد ديكور عبث
ولعبة خاوية .. وإن المنجزات التى تحققت فى العهد
الاستعمارى وألوان الرقى المادى والتقنى التى تسبب فيها مكن
الثقافة الهامشية أو المتعرضة للهيمنة (مثل البربرية) من
الأدوات الحاسمة لتحريرها ..»^(١) !

فهذا الذى يحتقر تراث العروبة والإسلام - وهو تراث أبدعه
البربر والعرب معاً - أترأه يعلق الآمال على بديل بربرى ، للغة غير
مكتوبة .. بل إنها عبارة عن «لهجات متعددة ، وبعضها يستعصى
فهمه حتى على بعض قبائل البربر .. على حين أن معظم البربر
يتحدثون العربية ، وبعضهم يجيدها إجادة تامة ، ليس فقط كوسيلة
للتخاطب ، وإنما أيضاً كأداة لأرقى أنواع التعبير الثقافى (من أدب
وشعر وفقه) ومن الصعوبة بمكان التمييز بين العرب والبربر ، فالعروة
الوثقى التى تربطهم ، منذ القرن السابع الميلادى ، هى
الإسلام ..»^(٢) !

(١) (الملل والنحل والأعراق هموم الأقليات فى الوطن العربى) ص ١٨١ .

(٢) المرجع السابق - ص ٦١ .

إن اتجاه «البربريزم» لا يعدو أن يكون «الثمرة المرة» للمخطط التفكيكي الاستعماري ، الذي أفصححت عن معالمة كتابات وأوامر وقوانين غلاة المستعمرين الفرنسيين . . . وهي ثمرة يواجهها جمهور العرب والبربر معاً بالرفض والنقد والتحذير .

فالسيسي المغربي البارز - الفقيه : محمد البصري - يواجه هذا المخطط بوعى عميق ، ومنطق دقيق ، فيقول : «أنا من أصل بربرى . . . ومع ذلك ، فإن تاريخي النضالي ، على مدى أربعين عاماً ، قد ارتبط بالوطنية المغربية والقومية العربية . . .

لا توجد مسألة بربرية بالمعنى السياسي الحقيقي للكلمة . . . فالبربر منذ مجون تماماً فى مجتمعهم ، بسبب الرابطة الإسلامية وسبب التزاوج المستمر . . . والمشكلة ، فى نظرى ، هى مشكلة مصالح اقتصادية سياسية ، ومشكلة ديمقراطية . . . فالذين يثيرون «المألة البربرية» ، مثلما هو الحال فى الجزائر مثلاً ، يفعلون ذلك حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية فى جهاز الدولة والإدارة الجزائرية ، وهؤلاء هم بربر منطقة القبائل الذين «تفرنسوا» لفة منذ وقت طويل ، ومن ثم مكنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع . . . ومع استمرار موجة التعريب ، بات هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم ، فرفعوا شعار الثقافة البربرية حيناً وشعار الثقافة الجزائرية حيناً فى مواجهة التعريب والثقافة العربية . . .

وفى الواقع ، إن من يدعو إلى ثقافة بربرية ، فى مواجهة الثقافة العربية ، ينتهى موضوعياً إلى الدعوة إلى الثقافة الفرنسية ، حتى

عن غير قصد ، فحيث إن البربرية لغة غير مكتوبة ، ولا يوجد لها تراث مكتوب ، فإن المناهضة للعروبة والعربية ستنتهي حتماً إلى الأخذ بإحدى اللغات العصرية الأخرى ، ولما كانت الفرنسية هي الأقرب والأقوى ، وهي المتاحة على أى الأحوال ، فإن هؤلاء الدعاة سيأخذون بها . . . ومن هنا ، ليس صدفة أن فرنسا هي المشجعة الأولى والرئيسية لحركة الثقافة البربرية . . . وإذا كان لى ، كبربرى ، أن أختار لغة وثقافة غير بربرية ، فالعربية هي اختياري ، وهي اللغة الوطنية ، وهي لغة الإسلام ، وهي وسيلتي إلى تراث العرب والمسلمين ، ووسيلتي إلى مستقبل قومي عربي مشترك مع بقية الشعوب العربية . . .» (١)

وإذا كان إمام العروبة والإسلام ، في تاريخ الجزائر الحديث ، وهو الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٧ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م) ، من أصل بربرى! . . . وإذا كان الذي عهدت إليه الدولة الجزائرية بمسئولية التعريب - بعد الاستقلال - وهو المفكر البارز «مولود قاسم» - هو الآخر من أصل بربرى! . . . فإن المفكر السياسى الجزائرى البارز : الأستاذ أحمد بن بلة ، يعبر عن موقف الجزائريين ، عرباً وأمازيغ ، من اتجاه «البربريزم» فيقول :

«الثقافة البربرية تختلف في وجوه هامة عن الثقافة العربية . . . وقد عاشت البربرية واستمرت طوال أربعة عشر قرناً ، محافظة على كيانها . . . وهذا يعنى أن لها وظيفة اجتماعية تؤديها . . . ولا أرى

(١) المرجع السابق - ص ١٧٠ ، ١٧١ .

ضرراً فى ذلك ، ولا مانع من تنمية هذا الإرث والمحافظة عليه ،
 بشرط ألا يتناقض ذلك مع أساسيات فى الجزائر . . فلا يعنى
 المحافظة على البربرية إلغاء العربية ، أو محو عروبة الجزائر . والعروبة
 عندي ، كما عند الكثيرين ، هى لغة وثقافة ، وليس سلالة أو
 عنصراً . . فنحن جميعاً ، فى المغرب الكبير ، أصلاً من البربر ،
 ولكن أغليبتنا أصبحت عربياً ، بحكم تبنى اللغة العربية والإسلام . .
 والخلاصة ، هى أننى أؤيد المطلب البربرى الثقافى ، ولكنى أرفض
 مقولة بعض البربر التى تذهب إلى أن العروبة «استعمار» ، مثلها
 مثل الاستعمار الفرنسى . . وأنا أحذر الإخوة البربر دائماً من مغبة
 انزلاق المطلب البربرى إلى حظائر أجنبية . . والأقليات دائماً
 مهينة لمد يدها للشيطان الخارجى إذا ما شعرت بالخطر الداخلى ،
 وهذا يحدث عندنا كما يحدث عند غيرنا ، لذلك ، فبقدر ما أحذر
 الإخوة البربر من الوقوع فى حظيرة الأجنبى ، بقدر ما أريد تحذير
 المسئولين العرب ، فى الجزائر وغيرها من دفع أى من أشقائنا فى
 الوطن للوقوع فى هذه الحظيرة . . هناك فرنسيون ، وخاصة من
 الرهبان ، ولهم مآرب أخرى فى تأييد وإذكاء البربرية . . وأنا لا أتهم
 أى جزائرى فى وطنيته - سواء كان عربياً أو بربرياً - ولكن مطالب
 بعض الفئات المشروعة تستغل أحياناً بواسطة قوى أجنبية ، ويصدق
 عليها عبارة على بن أبى طالب : «حق يراد به باطل»^(١) !

تلك هى حقيقة «الموقف - والمواجهة» على جبهة البربر الأمازيغ ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

أكبر الأقوام غير العرب عدداً في الوطن العربي - ١٥,١ مليوناً -
والذين ظلوا - رغم المخطط التفكيكي الاستعماري «جزءاً» من
الثقافة الإسلامية في المغرب»^(١) . . رغم «الرشح» الذي حدث من
هذا المخطط الاستعماري على بعض الرؤى والتوجهات لشريحة من
أبناء البربر ، نجحت سياسة الفرنسة الاستعمارية في «سجنهم»
داخل اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، فسعوا ويسعون - تحت
شعار «البربريزم» - إلى فك الارتباط المقدس والحضاري بين البربر
وبين العروبة ، وأحياناً الإسلام أيضاً !! . .

(١) تيودور جاز ^{جورج} أقليات في خطر ^{بنيان} ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ تعريب : مجدى عبد
الحكيم ، سامية الشامي . مراجعة وتقديم : د . رفعت سيد أحمد طبعة القاهرة سنة
١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

لعبت كثير من القوى المعادية لوحدة الأمة ، من خلال الشغرات التي فتحتها هذه القوى منذ إسقاط الخلافة العثمانية ، وإقامة التجزئة والإقليمية بدلاً منها ..

فالأكراد ، كالبربر ، مسلمون ، يجمعهم مع العرب المسلمين جامع الإسلام ، الذي يوحد الأمة كلها في العقيدة والشريعة والحضارة والدار .. والعربية أكثر شيوعاً وأكثر أهمية في حياة الأكراد وفكرهم من اللغة الكردية القومية .. فالعربية هي اللغة التي فقهوا بها القرآن والشريعة والعبادات .. وهي لغة الفقه والعلم والثقافة عند مثقفهم وعلمائهم ومفكرينهم الذين أبدعوا في الفكر العربي الإسلامي إبداعات بارزة ، والذين لا يميزهم ميمز عن العلماء المنحدرين من أصلا ب عربية .. بينما الكردية - لغتهم القومية ، والتي من حقهم الاعتزاز بها وبتراثها - هي مجموعة متفرقة من اللهجات ، يستعصى على بعض الأكراد أنفسهم فهمها أو الحديث بها جميعاً^(١) .. فالعربية ، للأكراد ، هي لغة الدين والعلم والإبداع في الفكر والثقافة والحضارة ..

لكن سقوط الخلافة الإسلامية ، قد اقترن به تراجع الصيغة الإسلامية للتعايش بين القوميات في دار الإسلام .. الصيغة التي رأت في التمايز القومي - المؤسس على التمايز اللغوي - آية من

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٥ .

أبانت الله في الاجتماع الإنساني .. وحل محل هذه الصيغة -
لدى قطاع من الحركة القومية العربية- فكر قومي مشيع بمضامين
عربية ، رشحت عليها النزعات العنصرية ، الأمر الذي أدى - بهذه
المفاهيم القومية العربية - إلى فتح ثغرة بين القوميتين ، العربية
والكردية ، عندما تبني نفر من أبنائهما ذات المفاهيم الغربية
العنصرية في البحث القومي ! ..

وكانت الثغرة الثانية ، التي تم منها الاختراق .. هي التجزئة
والإقليمية التي أقامها الاستعمار على أنقاض صيغة الخلافة
الإسلامية ، التي وحدت دار الإسلام رغم تمايز الأقاليم والولايات ،
 فلم تقم الحدود والسدود والجنسيات أمام أبناء الأمة الواحدة ،
 بقومياتها المتعددة .. وفي حقبة الاستقلال تجسدت هذه التجزئة
الاستعمارية وتكرست في «الدول القطرية» ، التي واصلت تقطيع
أوصال الأمة ودار الإسلام ..

وكان الأكراد ضحية لهذه التجزئة .. إذ على الرغم من تواصل
المنطقة التي تعيش فيها أغليبتهم ، جزأتهم هذه الإقليمية والقطرية ،
 فألحقوا بخمس من الدول القطرية ، الأمر الذي أذكى المشاعر
القومية في صفوفهم ، وفتح الباب للمفاهيم القومية الوافدة ، ذات
الطابع العرقي والعنصري ..

ومن هاتين الثغرتين ، اللتين صنعتهما القوى المعادية لوحدة
الأمة ، تسالت هذه القوى لتواصل مخطط التفكيك والتفكيك !! ..

لكن التجارب المريرة التي مرت بها علاقات الأكراد بالعرب ، في
ظل هذه العقود الأخيرة ، جعلت الحلول الانفصالية والنزعات

التفتيشية تتراجع ، ويفتضح أصحابها . . كما جعلت الكثيرين من
الذين خاضوا الكثير من هذه التجارب ، يدركون أنهم ضحايا
الاختراقات ، وليسوا بأي حال من الأحوال محل عطف قوى
التدخل والاختراق . . فارتفعت أصوات العقلاء بالتأكيد على
الروابط التوحيدية ، ورفض نزعات التعصب والانفصال . . وقرأنا
لزعيم الحزب الكردستاني ، « مسعود البرزاني » ، قوله : « نحن لسنا
دعاة انفصال عن العراق ، ولسنا أعداء للأمة العربية . . ولسنا
مناهضين للوحدة العربية . . إننا لم نعارض أبداً في دخول العراق
في أي مشروعات وحدوية عربية . . وأثناء مباحثات الوحدة
الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٤ م أرسلنا رسلاً
ورسائل إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر تؤكد تأييدنا لمشروع
الوحدة ، وثقتنا المطلقة بعدائه ونزاهته ، وإيماننا بأن المطالب
الكردية المشروعة ستجد لديه ، وستجد في أي مشروع عربي
وحدوي مكانها اللائق . لقد كان كل كردي يؤمن بأن عبد الناصر
متعاطف مع آماله المشروعة .

وللأمانة ، لا يمكن أن أنفي أنه توجد بين بعض الأكراد اتجاهات
عنصرية شوفينية معادية للعرب والعروبة ولكن هذه العناصر محدودة
جداً من الناحية العددية ، وليس لها نفوذ معنوي أو سياسي .
إن الجماهير العربية تعرضت وتعرض لنفس القهر والاضطهاد . .
وإن اختلفت الدرجة . . إننا ، كحركة تحرر وطني ، نؤمن إيماناً راسخاً
أن موقعنا الطبيعي والتاريخي هو مع الأمة العربية . .^(١)
ونفس توجه البرزاني ، نجده في قطاع « اليسار الكردي » . .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

فيتحدث الدكتور محمد محمود عبد الرحمن - الذي سرت
 مسيرته السياسية بالحزب الشيوعي ، فحزب الشعب الديمقراطي
 الكردستاني - فيقول : «إن العلاقة بين الأكراد والعرب هي علاقة
 تاريخية خاصة ، تضرب بجذورها إلى أكثر من ١٣٠٠ سنة من
 التاريخ المشترك ، وإن القوميتين العربية والكردية هما قوميتان
 متآخيتان ، وإن طلائعهما التقدمية تشتركان في معاداة الإمبريالية ،
 وتهدفان إلى توحيد أجزائها المتناثرة ، وتقفان مع حركات التحرر
 العالمية في خندق واحد . . أجل ، يجمعنا التراث المشترك في
 الدين والتاريخ والجوار الجغرافي . . وأقصد الدين كطريقة للحياة
 وكنظرة كونية ، وليس فقط كعبادة وطقوس . . وجمعنا التطلع
 للمستقبل المتحرر من الظلم والاستغلال والتخلف والتبعية . ومن
 هنا كان توحدنا مع عبد الناصر ، فقد كان يشعر بنا وبهمومنا
 المشروعة ، التي لم ير فيها تناقضاً مع الآمال القومية العربية .
 إن الأرضية الشعبية الكردية العريضة مؤيدة للعرب ومتعاطفة مع
 كل قضائهم ، من فلسطين إلى الوحدة العربية ، وذلك بسبب
 الروابط التاريخية والروحية العميقة . . (١) » .

أما الدكتور محمود عثمان - وهو مثقف كردى . . وعضو قيادى
 فى الحزب الاشتراكى الكردستاني - فإنه يقول : «نحن الأكراد
 شعب أصيل ، يرجع تاريخه إلى ٣٧٠٠ سنة إلى الوراء ، يرجع
 أصله إلى جنوب القوقاز الجبلية ، ذات الأصول الآرية ، ولغته هندو
 أوروبية ، من عائلة اللغات الفارسية . . منذ أتى العرب المسلمون
 إلى وادى الرافدين ، منذ أربعة عشر قرناً ، اختلط تاريخنا وحضارتنا

(١) المرجع السابق . ص ٢٦٦ .

بتاريخهم وحضارتهم ، و ربط بيننا وإياهم الدين الإسلامى . .
فمشكلتنا المعاصرة بدأت مع المشكلات المعاصرة لكل شعوب
وقوميات المنطقة فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية . . وأنا
شخصياً ، ومعظم القيادات الكردية ، نؤمن بصراحة بأن تطورتنا
السياسى والاقتصادى والثقافى يمكن أن يتم بشكل أفضل فى إطار
وحدة وطنية عراقية . . وفى إطار وحدة الأمة العربية . . (١) .

تلك هى شهادات الوعى الكردى بمخاطر الخطط التفتيشية ، الذى
لعب بمطالبهم المشروعة ، ضد التمييز القومى ، لعدة عقود . . وأخطر
ما فى هذه الشهادات . . هو قول الدكتور محمود عثمان : «إن
مشكلتنا المعاصرة بدأت مع المشكلات المعاصرة لكل شعوب
وقوميات المنطقة ، فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية . .» .

فقبل التدخل الاستعمارى ، والتجزئة التى مزق بها الاستعمار
جسد العالم العربى والإسلامى ، كانت الصيغة الإسلامية «أمية
إسلامية» تتنوع فيها وتتمايز الشعوب والقبائل والأقوام والملل
والنحل والمذاهب فى إطار وحدة الأمة والحضارة والدار . .

وبالتجزئة الاستعمارية ، والفكر القومى العنصرى - ذى المفاهيم
القريبة الوافدة - فتح الغرب الاستعمارى الثغرات ، وظل يسعى من
خلالها لتفتيت العرب والمسلمين ، ليلحقهم ، كشراذم وذرات ،
وكهوامش وتوابع بنموذجة الحضارى . .

فالصيغة الإسلامية للتعايش - التنوع فى إطار الوحدة - هى
طوق النجاة للجميع ! . .

(١) المرجع السابق . ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

على جبهة الموارنة

تم أقدم اختراق غربي لقطاع من طائفة نصرانية تعيش في الوطن العربي .. لا لأن الموارنة كاثوليك ، يتبعون مذهباً نصرانياً قيادته غربية ، فهناك كاثوليك عرب ظلت علاقاتهم بالكاثوليكية الغربية عند حدود «اللاهوت» ، ولم تصبح لهم «مشكلة سياسية» ، كما حدث مع المارونيين ..

صحيح أن الارتباط المذهبي الماروني بالمذهب الغربي للنصرانية قديم .. فالقديس «مارمارون» (حوالي ٤١٠ م) ظل أتباعه على المذهب الغربي في قانون الإيمان ، منذ الانقسام الذي حدث في «مجمع خلقيدونية» سنة ٤٥١ م ، لتمسكهم بمقررات ذلك المجمع! .. لكن «المارونية السياسية» نشأت عندما اتخذ الغرب شريعة من المارونيين موطئ قدم لمشروعه الاستعماري في الشرق العربي ، وكان المذهب الديني مجرد ثغرة للاختراق! .. وذلك أن المذهب الديني ، في ديانة تدع ما لقيصر وما لله لله ، وتجعل مهمتها خلاص الروح ، ورسالة كنيستها مملكة السماء ، لا الدولة والأرض والسياسة والعمران الدنيوي .. إن المذهب الديني ، في ديانة كهذه ، لا يثمر ، بالطبيعة «مارونية سياسية» ، تتعلق بالنموذج الحضاري الغربي ، والثقافة الفرنسية ، وتعمل على الانسلاخ من العروبة القومية والإسلام الحضاري! ..

ففي سنة ١٢٥٠م - إبان الحروب الصليبية - جاء الإمبراطور

الفرنسي لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠ م) إلى الشرق العربي غزياً ، فاستقبله في «عكا» وفد ماروني ، وطلب منه الحماية - في وقت كانت كثير من الطوائف المسيحية تقف مع المسلمين في خندق واحد ضد الغزاة الفرنجة الصليبيين - ويومئذ سلم الملك الفرنسي الوفد الماروني رسالة - مؤرخة في ٢١ مايو سنة ١٢٥٠ م - يقول فيها «نحن مقتنعون بأن هذه الأمة - (الجماعة) - التي تعرف باسم القديس مارون ، هي جزء من الأمة الفرنسية»^(١) !! ..

فهنا ، وفي ظل غزو استعماري ، تتعلق جماعة عربية ، كاثوليكية كالفرنسيين ، بالحماية الاستعمارية للفرنسيين ، ويعتبرهم الغزاة جزءاً منهم ، وامتداداً لهم في قلب الوطن العربي ..

ومن هذه الشجرة ، وإبان المد الاستعماري الغربي الحديث ، تواصل الاختراق .. فمدارس البعثة اليسوعية الفرنسية في لبنان - في القرن التاسع عشر - تعتبر التعليم الذي تقدمه «فتحاً بواسطة اللغة» .. والقنصل الفرنسي يعتبره «سيطرة على الشعب ، تخلق جيشاً مارونياً يتفانى في خدمة فرنسا»! .. فيكتب «بول موفلان» Paul Muvellin أحد كبار اليسوعيين : «إن تعليم الناس لغتنا - (الفرنسية) - لا يعني مجرد أن تألف ألسنتهم وأذانهم الصوت الفرنسي ، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى المواطنين الفرنسية ، حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما .. إن هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة ..»!!

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٤ - وهو ينقل عن «وثائق الباب العالي» المجلد الثالث - ص ١٠٠

وفي مذكرة كتبها القنصل الفرنسي ببيروت - في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ م - إلى سكرتير الدولة ، بوزارة الخارجية الفرنسية - في باريس - يقول : «إنه حين ننشر في هذا البلد ، بواسطة اللغة الفرنسية ، التعليم ، والأخلاق ، والفنون المفيدة ، والزراعة ، فإننا سوف نسيطر على الشعب ، وسيكون لفرنسا هنا ، وفي كل وقت ، جيش متفان» !!

وفي مذكرة أخرى - تاريخها ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٧ م - كتب القنصل «دي لاتينو» De Lattenaud إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، يطالب بإنشاء المزيد من المدارس اليسوعية المجانية ، لأنها السبيل إلى «جعل البربرية العربية - (١؟) - تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية الفرنسية»^(١) !!

ومن ثغرات هذا الاختراق ، قامت «المارونية السياسية» ، كإسلاخ عن العروبة القومية والإسلام الحضارى ، والتحاق بالنموذج الحضارى الغربى والثقافة الفرنسية ، وموطن قدم للمشروع الفرنسى فى الوطن العربى ..

وللمنافسة الاستعمارية بين الدول الغربية ، رمت إنجلترا شباكها على الدروز ، فى مواجهة المارونيين ! .. فكانت هذه المنافسات الاستعمارية وراء الكثير من مأسى الشقاق الدينى والصراعات الطائفية الدامية التى حدثت بين الطوائف .. فبعد تاريخ إسلامى

(١) المرجع السابق . ص ٧٣ - وهو ينقل عن «مراسلات القناصل السياسية - وزارة الخارجية الفرنسية - مجلد ٢» .

طويل ، عاشت فيه الملل والنحل والطوائف والمذاهب والأقوام «لبنات» - متنوعة- في جدار الأمة الواحدة . . نجح الاختراق الاستعماري في أن يحول بعضها ، أو شرائح من بعضها ، إلى وقود للفتن والصراعات ، عندما استدرجها بعيدا عن الوحدة الإسلامية الجامعة والانتماء العربي الواحد . . وفي مذكرة وجهتها المفوضية البريطانية في بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية - في لندن- بتاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٤م- نقرأ :

«إن كل مذبحة حدثت أيام العثمانيين كانت لها خلفيات سياسية ، ولو جزئياً ، فقد حاول الروس مساندة الأرمن واستغلالهم ضد السلطة ، فأثاروا حفيظة الأتراك ، وساندت فرنسا الموارنة ، فكان موقفها عاملاً في وقوع مجازر سنة ١٨٦٠م . . ومشاكل الأثوريين في العراق ، التي وصلت إلى ذروتها بمذبحة سنة ١٩٣٣م ، كانت - إلى حد ما - نتيجة تعنت الأثوريين - وخاصة مارشمعون- لقد اتخذ الأثوريون هذا الموقف معتقدين أننا في النهاية سننجر إلى التدخل وإلى بسط حمايتنا عليهم . وفي فلسطين حدثت مجزرة الخليل سنة ١٩٢٩م وغيرها من المجازر بسبب العامل الخارجي . إن الاضطهاد الدموي غريب عن تاريخ السوريين . من الممكن أن يحصل هنا بعض التمييز والاضطهاد . . إلا أن المجازر الكبرى كانت دائماً حصيلة التدخل الخارجي^(١) . .»!

ففي ظل النموذج الإسلامي ، لمتعددية في إطار الوحدة ، لم

(١) المرجع السابق . ص ٧٩ ، ٨٠ - وهو ينقل عن وثائق الخارجية البريطانية

٢٥٦ : F. O. 226

يكن هناك اضطهاد دموي - باعتراف المذكرة البريطانية - بينما قاد الاختراق الاستعماري لشغرات الطوائف أبناء هذه الطوائف إلى «المجازر الكبرى»! .. فلقد كانت الثمرة المرة لهذا الاختراق هي محاولات الانسلاخ عن الجسم الطبيعي للأمة ، والالتحاق بالغرب ، وزرع الغرب في قلب وطن الأمة وحضارتها .. وكان لابد لهذا العمل القسري وغير الطبيعي من مشكلات وتوترات بلغت درجة المجازر التي سالت فيها الدماء .. ويعبر المفكر والسياسي الماروني «جوزيف مغيزل» عن توجه المارونيين غرباً ، وإعجابهم بكل ما هو غربي ، فيقول : « إن المأزق السياسي والحضاري للموارنة هو أنهم لا يرون العرب المسلمين داخل وخارج لبنان على صورة الغرب الكاثوليكي . وما لم يتم مسح العرب المسلمين ليطابقوا صورة الغرب المسيحي فهم غير مقبولين تماماً من الموارنة .. ولما كان مسح العرب المسلمين على هذه الصورة يكاد يكون مستحيلاً ، فيظل الموارنة على موقفهم .. وهذا المأزق الحضاري السياسي تحول خلال الحرب الأهلية إلى مأزق سياسي عسكري .. وقد حاولوا الخروج من المأزق بالتحالف مع الشيطان ، أي إسرائيل»^(١) ! ..

فالانسلاخ عن القومية العربية والحضارة الإسلامية ، يجعل الطائفة المنسلخة تتحول عن موقعها الطبيعي ودورها التاريخي - دور «اللبننة» في الكيان الموحد للأمة - إلى دور «ثغرة الاختراق» ، الذي يفضي إلى كارثة لا تقف آثارها عند طرف واحد من الأطراف ! ..

(١) (الملل والنحل والأعراف) ص ٦٤١ ، ٦٤٢ .

على جبهة الأقباط الأرثوذكس

تواصلت محاولات الاختراق والتفتيت .. وتعددت سبله ووسائله .. فالأقباط الأرثوذكس ، يمثلون أقدم وأعرق الكنائس الوطنية الشرقية .. وهم أكثر الطوائف النصرانية العربية عدداً .. ولقد بدأت محاولات الاختراق الاستعمارية بهم إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) .. ثم استثمرت عبر البعثات التبشيرية الغربية ، التي بدأت بمحاولات تغريب الكنيسة القبطية ، واقتطاع بعض من أبنائها لحساب المذاهب النصرانية الغربية ، وذلك تمهيداً لإحاق الأقباط بالنموذج الغربي ، وسلخهم عن وحدة الأمة العربية والحضارة الإسلامية .. وواصل الاستعمار الإنجليزي المحاولات ، في مختلف الميادين إبان احتلاله لمصر (١٨٨٢ - ١٩٥٦م) ..

وفي المخطط الصهيوني رأينا التركيز على تفتيت مصر ، من ثغرة الطائفية الدينية ، رغم التسليم بتلاحم شعبها وطنياً وقومياً وحضارياً .. ففي مشروع «برناردلويس» حديث عن «تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل ، واحدة إسلامية والثانية قبطية» .. وفي (استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات) حديث عن «أن رؤية دولة قبطية - مسيحية في صعيد مصر ، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية ، لا سلطة مركزية ، كما هو الوضع الآن ، هي مفتاح هذا التطور التاريخي .. فمتى تفتت مصر تفتت الباقون ..» !

ولم تقف هذه المخططات عند «الفعل الخارجي» .. وإنما رأيناها تنجح - مع الأسف الشديد - في استدراج نفر من الأقباط الذين هاجروا إلى المهاجر الغربية - وخاصة في أمريكا وكندا وأستراليا - فتحولوا - بوعى أو بغير وعى - إلى جزء من هذا المخطط التفتيشي .

ورأينا مراكز أبحاث ودراسات تحترف تسليط كل الضوء على «هموم الأقليات» - وكأنما هذه الهموم خاصة بهذه «الأقليات» ! ..

وتحترف تزيف أرقام أعداد هذه «الأقليات» ، لتعطى للمقارئ انطباعات تزيف واقع الأمة ، وتوحي بأن هذا الواقع هو عبارة عن «أقليات» و «أغلبيات» لا يربطها رباط الأمة الواحدة .. ولتوهم ، بتضخيم حجم «الأقليات» وحجم «همومها» بأن العقبات أمام وحدة الأمة كأداء ، تستعصى على الاجتياز ! .. ففى الأسفار والكتب والنشرات المنتظمة ، التى يصدرها أحد هذه «المراكز البحثية» نشاهد نموذجاً لتزيف أرقام «الأقليات» - كل «الأقليات» - لا يمكن أن يخدم إلا مقاصد التفتيت ..

فالدكتور سعد الدين إبراهيم ، نشر فى سنة ١٩٨٨م كتابه (المجتمع والدولة فى الوطن العربى) .. وقدم فيه إحصاءات عن «الأقليات» ، فلما نشر كتابه الضخم (الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات فى الوطن العربى) - أوائل التسعينات .. أى بعد عام أو عامين من كتابه الأول - قفزت تقديراته لأعداد هذه «الأقليات» قفزات لا يتصورها عقل ولا يقول بها إحصاء .. وذلك رغم أن مصادر إحصاءاته فى كتابه الجديد ليس فيها مصدر واحد جديد! .. بل المدهش أن أحدث مصادره فى هذه التقديرات

الجغرافية الجديدة- تقديرات أوائل التسعينيات- مصدر منشور سنة ١٩٨٠ م - ولا تسل عن زمن إحصاءات هذا الذى نشر سنة ١٩٨٠ م .. واعتمد لتقديرات سنة ١٩٩٠ م - !!؟ ..

ويكفى لإدراك مدى القفزات الجغرافية ، التى تضخم حجم «الأقليات» فى الوطن العربى مقارنة الأرقام التى نشرها الدكتور سعد أواخر سنة ١٩٨٨ م بتلك التى قال إنها «تقديراته» أوائل التسعينيات .. ثم مقارنتها بمصدر ثقة ، هو (أطلس معلومات العالم العربى) - لمؤلفين مسيحيين : لبنانى ، هورفيق البستاني .. وفرنسى ، هو فيليب فارح - والمنشور سنة ١٩٩٤ م - يكفى أن نقارن هذه الأرقام لندرك توظيف المبالغات والتزييف لتضخيم «عقبات» وحدة الأمة وتوسيع ثغراتها ، وخدمة مخططات التفتيت - بصرف النظر عن النوايا والمقاصد ، التى لا يعلم حقيقتها إلا الله - .

* فالمسيحيون العرب - بكل طوائفهم - عند الدكتور سعد الدين إبراهيم - فى سنة ١٩٨٨ م - تعدادهم ٧,٨٠٠,٠٠٠ وهو يقفز بهم أوائل التسعينيات - أى بعد عام أو عامين - إلى ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ؟! .. بينما نجدهم فى (أطلس معلومات العالم العربى) - فى سنة ١٩٩٤ م - ٧,٠٠٠,٠٠٠ فقط ؟! ..

* والأقليات اللغوية (القومية) فى الوطن العربى ، هى عند الدكتور سعد - فى سنة ١٩٨٨ م - ٢٠,٠٥٠,٠٠٠ وهو يقفز بها أوائل التسعينيات - أى بعد عام أو عامين - إلى ٢٩,٧٢٥,٠٠٠ ؟! ..

(١) ندوة الموقف الإسرائيلى من الجامعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى) ص ٦ .
ترجمة الدار العربية للدراسات والشر . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م .

بينما نجدها في (أطلس معلومات العالم العربي) - في سنة ١٩٩٤م - ٢٣,٧٠٠,٠٠٠ فقط لا غير ؟! ..

والمنتج لهذه الفوضى الإحصائية ، يجد الدكتور سعد الدين إبراهيم يضيف لحجم «الأقليات» في الوطن العربي - وفق تقديراته الجغرافية - ١٤,٠٥٦,٠٠٠ .. أي قرابة الـ ٢٩٪ من مجموعها !؟^(١)

« ويزيد هذا الأمر خطراً ، إذا نظرنا إلى هذا «الحجم» الذي تعطيه هذه «التقديرات» لهذه «الأقليات» ، في ضوء «الحقائق» التي تقول :

١ - إن مقابلة «الزنجية» ، مثلاً ، بالعروبة والعربية فيها وهم كبير .. فالعروبة جامع موحد ، بينما «الزنجية» ، هي على الأقل تسعة عشر مجموعة عرقية! .. والعربية جامع موحد .. بينما الزنوج - في جنوب السودان - يتحدثون حوالي مائة لهجة! .. وأغلب الزنوج يتحدثون العربية ، أو إحدى لهجاتها ، أو يستخدمون في لهجاتهم الكثير من الكلمات العربية ..

ب - وأن مقابلة «الوثنية الزنجية» بـ «الإسلام» ، فيها وهم كبير .. فالإسلام جامع موحد .. بينما الوثنية الزنجية أخلاط متعددة من العقائد الأرواحية .. كما أن نسبة الذين اعتنقوا الإسلام من الزنوج تزيد على ١٨٪ ونسبة المسيحيين منهم تبلغ ١٥٪! ..

(١) قارن (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ . و (الملل والنحل والأعراق) ص ٦٢ ، ٧٤ ، ٨٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م ورفيق البستاني ، فيليب فارح (أطلس معلومات العالم العربي) ص ٢٨ - ٣٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م .

ج - وأن مقابلة الأمازيغية بالعربية فيها خداع كبير . . فالبربرية لهجات عديدة ، وشفاهية غير مكتوبة . . وليس في البربر من لا يتكلم العربية على نحو ما . . فهي لغة الدين الذي به يتدينون ، والقرآن الذي له يقدسون ، ولآياته يحفظون وبه يصلون . . ومنهم العلماء والأدباء والشعراء والمثقفون في العربية . . بل وأبرز دعاة التعريب! . .

د - وأن مقابلة الكردية بالعربية فيها خداع كبير . . فالكردية ، وإن كتبت ، فأبجديتها عربية . . وليس بين الأكراد من لا يتحدث بالعربية ، لأنها لغة القرآن والدين والتراث الذي به يؤمنون وإليه ينتمون . . ولأعلامهم وعلمائهم في تراث العربية الإسهامات والإبداعات . .

هـ - وأن مقابلة النصرانية بالإسلام فيها وهم كبير . فخلاف الإسلام مع النصرانية ليس في الشريعة ، التي تمثل مرجعية الدولة والحضارة والقومية والاجتماع والتراث وسمات الاندماج وتبلور الأمة ووحدتها . . لأن النصرانية لا تقدم بديلاً للإسلام في مرجعية النظم والتدابير الدنيوية وصياغة القسمات الموحدة للأمة ، والجامعة لقوميتها ، والمكونة لهويتها . . وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف في منظومة القيم الحاكمة لأخلاق الأمة وسلوك المؤمنين بهما . . وليس بين الإسلام والنصرانية خلاف في سمات وقسمات القومية العربية . . وخلاف الشريعتين لا يتعدى جزئية اللاهوت الخاصة بالتثليث ، وهي التي لا دخل لها في مكونات

(١) المرجع السابق ، ص ٧ - ١٠ .

الاجتماع المشترك بين أبناء الأمة العربية ، المتدينين بالنصرانية والإسلام .

وهكذا . . إذا نظرنا إلى «حجم وعدد» «الأقليات» ، فى ضوء هذه «الحقائق» ، ظهر «وزن التميز» الذى تمثله «الفروق» فى مقابل «الجوامع الموحدة» التى تجمع الأمة وتوحيدها ، وتميزها كأمة واحدة . .

فنحن أمام «محيط» يحتضن مجموعة من «الجزر» ، يحنو عليها ، ويوسع لها صدره . . ووجودها فيه ، وحفاظه عليها ، شواهد على أن وحدته إنما تغتنى بوجودها المتعدد فيه! . . فهو التنوع فى إطار الوحدة ، والتمايز فى إطار الجامع . . وليس التشظى ولا التشرذم ولا التفكيك! . .

وبهذا المنهج ، لا تصبح للأرقام - قلت أو كثرت - تأثيرات على وحدة الأمة . . لكن تزييفها ، بالمبالغة فيها ، له انطباعات سلبية ، إذا هو وظف فى إطار مخطط التفيت . .

والأمر الذى يرجح أننا بإزاء توظيف «للتزييف الإحصائى» فى خدمة مخطط التفيت والتفكيك ، هو «الحلول» التى يقترحها هذا التوجه «للمشكلة» التى اخترعها . . فهذا التوجه لا يكتفى بالتشرذم والتجزئة ، التى أقامت الحدود والسدود والجنسيات بين وطن العروبة ، فجعلته اثنتين وعشرين دولة وجنسية . . وإنما يزيد الطين بلة عندما يقترح «الفيدرالية» حلاً ينظم العلاقات بين الطوائف والملل والنحل والأعراق والمذاهب والأقوام فى الوطن

العربى! .. ويزعم «أن التطبيق المرن والمبدع لـ «الفيدرالية» يمكن أن يخلق نظاماً وظيفياً حديثاً مكافئاً لـ «نظام الملة» الذى كان معمولاً به فى الإمبراطورية الإسلامية السالفة»^(١)!

وهو يتجاهل - بهذه المقارنة الخريبة - أن «نظام الملل» كان يمثل تعددية غير سياسية .. تعددية فى الشرائع الدينية الخاصة - بحكم طبيعة النصرانية - بأحوال الأسرة والشعائر العبادية والاعتقاد الدينى .. دون أن تؤثر فى السمات الموحدة للدولة والأمة .. بينما هذه «الفيدرالية» ، التى يقترحها هذا التوجه التفكيكى هى تعددية سياسية فى «الأرض» - الوطن - و «البشر» - الشعب - تضاف للتشرذم الذى أحدثته «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦ م .. وليس هذا مجرد استنتاج من مقتضيات ومقدمات هذا التوجه .. فصاحبه هو الذى يقول : «إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ، ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضاً»^(٢) ..

فمقاصد هذا التوجه ، هى المزيد من التجزئة السياسية للوطن العربى ، والتشرذم للأمة الواحدة ، انطلاقاً من تعظيم حجم «الأقليات» ، بتزييف أعدادها .. ومن تسليط كل الأضواء على «همومها» ، بعد عزلها عن «هموم الأمة» .. لتبدو أمتنا - كما صورتها المخططات الخارجية المعادية - «برج ورقى» مصطنع ..

(١) د . سعد الدين إبراهيم (التعددية الإثنية فى الوطن العربى) ص ٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٢ .

و «فيسفائيات متجاورة» . . و «مجتمعات موزايك» ، لا تجمعها
جوامع الأمة الواحدة ! . .



وإذا كان عقلاء الدنيا يتحدثون عن أمتنا كحضارة واحدة ،
استوعبت وهضمت ووحدت الموارث الحضارية السابقة . . وإذا
كان ، حتى «كرومر» ، الذي درس الشخصية المصرية ، قد حكم
باستحالة التمييز فيها بين المسيحي والمسلم ، لأنهم شريكون ،
ينتمون إلى منظومة قيمية واحدة ، وحضارة واحدة . . فإن بعض
الذين «رُشحت» على توجهاتهم الفكرية مخططات التفتيت ، قد
أصاب «الغبش» وعيهم ، فتحدثوا عن أننا أبناء «الرقائق
الحضارية» - وليس الحضارة الواحدة . . وأصحاب «ثقافة موزايك»
- وليس الثقافة الواحدة - فتحدث أحدهم - ملخصاً «جهوده
الفكرية» في هذا الموضوع - فقال : «من وجهة نظر حضارية ، مصر
لها ساقان ، هما إسلام مصري ، ومسيحية مصرية ، والساقان
ترتكزان على رقائق من الحضارات السابقة . . والمصري ، من ناحية
الشكل : سُنَى الوجه ، شيعى الدماغ ، قبطى القلب ، فرعونى
العظام . .»^(١) ! . .

وهو تصور يصل فى التفكير إلى حد «العيشية» ، وذلك عندما
لا يقف عند تفكير الحضارة ، والشخصية القومية ، ووحدانية

(١) د . ميلاد حنا . نشرة (الجمع المدنى - العدد ٥٠ فبراير سنة ١٩٩٦ م - ص ٣٢ -
وهي نشرة بصورها «مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية» والذي يرأسه الدكتور
مسعد الدين إبراهيم . . .

المنظومة القيمية . . وإنما يتجاوز ذلك إلى تفكيك المسيحية وتفكيك الإسلام . . ناهيك عن الصورة الهزلية التي جعل فيها المصري - الذي ضرب الناس به المثل في وحدة الشخصية والهوية - « كرنفالا » عجيباً !! . .

إن هذه التوجهات ، التي تركز الأضواء على « الفروق » لا « الجوامع » ، والتي لا ترى « الفروق » في إطار « الجوامع » ، والتي تحترف إثارة « الأقليات » ، في ظل مخططات التفتيت الخارجية المعلنة - حتى ولو حسنت نوايا أصحابها - إنما تخدم هذه المخططات التفتيتية المعلنة . . ولنتذكر كلمات « موشيه شاريت » - التي سبق وأوردناها في سياقها - والتي يقول فيها : « ويعتبر مجرد تحريك الأقليات عملاً إيجابياً ، لما قد ينجم عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر . . وهو يذكي النار في مشاعر الأقليات في المنطقة ، ويوجهها نحو المطالبة بالاستقلال »^(١) !

ولنتذكر أن الذين تحدثوا عنا « كمجتمعات فيفسائية . . وكبرج ورقي . . ومجتمعات الموزايك » . . كانوا الصهاينة^(٢) . . قبل أن يتلع هذا « الطعم السام » نفر من مثقفينا ! . . فحرام ، وغير لائق ، ولا معقول أن يتبنى البعض منا ما نصت عليه « استراتيجيات إسرائيل في الثمانينيات » !! . .

لكن . . ولحسن الحظ ، فإن هذه الأصوات ، التي استدرجت إلى خدمة المخطط التفكيكي . . أو التي رشحت على توجهات أصحابها

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٧٤٧ .

(٢) المرجع السابق . ص ٧٤٣ . و (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٠ .

مقولات هذا المخطط . . قد ظلت «الشذوذ . . والنشاز» الذي يثبت أن
جسمه ورأى أبناء الملل والأقوام والمذاهب ، على وعى بحقائق الجوامع
الموحدّة للأمة ، ومخاطر المخططات المحدقة بهذه الوحدة . .

وإذا كان اللورد «كرومر» (١٨٤١ - ١٩١٧ م) قد أدرك أن القبطي
والمسلم كلاهما شرقي ، قد وحدتهما الحضارة الإسلامية من قمة
الرأس إلى أخمص القدم في المسلك الأخلاقي واللغة
والروح»^(١) . . فإن «ميشيل عفلق» (١٣٢٨ - ١٤٠٩ هـ - ١٩١٠ -
١٩٨٩ م) قد رأى هذا الجامع الحضاري عاماً في كل الأمة
العربية . . فكتب يقول : «لا يوجد عربي غير مسلم . . فالإسلام هو
تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . .
إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم
ومذاهبهم . . وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم ، إذا كان هذا
العربي صادق العروبة ، وإذا كان متجرداً من الأهواء ، ومتجرداً من
المصالح الذاتية . . وإن المسيحيين العرب ، عندما تستيقظ فيهم
قوميتهم ، سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن
يتشبعوا بها ويحبوها وحرصوا عليها حرصهم على أئمن شئ» في
عروبتهم . . ولئن كان عجبى شديداً للمسلم الذي لا يحب
العرب ، فعجبى أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام»^(٢) ! . .

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٩٣ .

(٢) (الكتابات السياسية الكاملة) ج ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، ج ٥ ص ٦٨ ، طبعة بغداد

سنة ١٩٨٧ م وسنة ١٩٨٨ م .

والزعيم الوطنى القبطى البارز «مكرم عبيد» (١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦١ م) هو القائل : «نحن مسلمون وطناً . . ونصارى ديناً . . اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصاراً . . واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين»^(١) .

وبابا الأقباط الأرثوذكس «شنودة الثالث» هو القائل - فى تصريحاته المعلنة - : «إن الأقباط ، فى ظل حكم الشريعة الإسلامية ، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً ، ولقد كانوا فى الماضى ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد . . نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» . . إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن ، وتطبقها علينا . ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة ، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ، ولا نرضى بقوانين الإسلام»^(٢) ١٩!

والقس الكاثوليكي «حنا قلته» يقول : «أوافق تماماً على أن أكون مصرياً . . مسيحياً ، تحت حضارة إسلامية . . بل أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة . . أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية . . تعلمت أن النبى ﷺ ، سمح لمسيحيي اليمن أن يصلوا صلاة الفصح فى مسجد المدينة . . فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة . . التى تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير

(١) د . محمد عمارة (الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين) ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ طبعة القاهرة سنة ١٤١٣ هـ سنة ١٩٩٢ م . وصحيفة (الوفد) - القاهرة - عدد ٢١ يناير سنة ١٩٩٣ .

(٢) صحيفة (الأهرام) - المصرية - عدد ٦ مارس سنة ١٩٨٥ م .

المسيحي .. والتي تعلی من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فی الأرض .. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة .. وإنه لیشرقنی ، وأفتخر أننى مسیحی عربی ، أعیش فی حضارة إسلامیة .. وفی بلد إسلامی .. وأسأهم وأبنى ، مع جمیع المواطنین ، هذه الحضارة الرائعة ..»^(١) ! ..

والدكتور غالى شكرى - فی لحظة صدق مع الحقيقة - هو القائل : «إن الحضارة الإسلامیة هی الانتماء الأساسی لأقباط مصر .. وعلى الشباب القبطی أن یدرك جيداً أن هذه الحضارة العربیة الإسلامیة هی حضارته الأساسیة .. إنها الانتماء الأساسی لكافة المواطنین . صحیح أن لدينا حضارات عديدة من الفرعونیة إلى الیوم ، ولكن الحضارة العربیة الإسلامیة قد ورثت كل ما سبقها من حضارات ، وأصبحت هی الانتماء الأساسی ، والذي بدونه یصبح المواطن فی ضیاع .. إننا ننتمی - كمرب من مصر - إلى الإسلام الحضاری والثقافی ، وبدون هذا الانتماء نصبح فی ضیاع مطلق .. وهذا الانتماء لا یتعارض مطلقاً مع العقیدة الدینیة . بالعکس .. لماذا ؟ لأن الإسلام وحد العرب ، وكان عاملاً توحیدياً للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد ..»^(٢) .

هكذا رأینا ونرى الوعى الحقیقی بوحدة الأمة .. والرفض

(١) (الإسلام والسیاسة - الرد على شبهات العلمانیین) ص ٢٠٥ - وهذه العبارات وردت فی ندوة نظمتها «اللجنة المصریة للمعداة والسلام» عن «أثر المعد النبی فی الاشتراك فی العمل العام» بغداد الحرة - بمصر الجدیدة - فی ٩ نوفمبر سنة ١٩٩١م .

(٢) صحیفة (الوفد) - المصریة - عدد ٢٨ رجب سنة ١٤١٢ هـ ٢١ يناير سنة ١٩٩٣ م .

الحاسم مخططات التفتيت الطائفى - الخارجى منها . . وما تسلل فرش على بعض التوجهات - .

بل لقد تصدت أصوات ومواقف العقلاء ؛ لهذا الإلحاح المشبوه على «فكرة الأقليات . . وهمومها» . . فقال «الأنبا موسى» - أسقف الشباب بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية : «نحن كأقباط ، لا نشعر أننا أقلية ، لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقى «إثنى» ، لأننا مصريون ، وأتجاسر وأقول : كلنا أقباط ، بمعنى أنه يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة ، ووحدة المسألة العرقية تجعلنا متحدين مهما اختلفنا . هناك طبعاً التمايز الدينى ، لكن يظل الأقوى والأوضح الوحدة العرقية . ولا نشعر نحن الأقباط بشعور الأقلية البغيض الذى يعانى منه غيرنا ، نحن أقلية عديدة فقط ؛ ولكن هذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شخاً بيننا وبين إخواننا المسلمين . . من جهة الهوية العربية ، نحن مصريون عرقاً ، ولكن الثقافة الإسلامية هي السائدة الآن ، كانت الثقافة القبطية هي السائدة قبل دخول الإسلام ، وأى قبطى يحمل فى الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية ، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة ، بل هي جزء من مكوناته . . نحن نحيا العربية لأنها هويتنا الثقافية ، ومقتنعون بالطبع بأن فكرة العروبة فكرة سياسية واقتصادية وثقافية ، بالإضافة لوحدة المصير المشترك . . والعلاقة بين الجذور والعروبة علاقة تناصرية ، هذه دوائر متداخلة . . تاريخنا أفضل من حاضرننا ، حينما نذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية كانوا مع إخوانهم

المصريين لهم دور مشترك في عزل الوالى العثمانى ومجئ محمد على ، وكان جرجس الجوهري أحد قادة الأقباط ، وكذلك إبراهيم الجوهري أخوه ، وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح في الحياة السياسية في عهد محمد على . . والأقباط دورهم بعد الثورة - سنة ١٩٥٢ م - تقلص كجزء من التقلص الشامل في المشاركة بمصر ، كانت هناك سلبية شاملة . . وأنا أعتقد أن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية ، لقد انغمس المسيحيون في الحياة العملية . . فهم أطباء وصيادلة ومهندسون ، وغيرها من المهن ، ونسبتهم أيضاً في رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية في مصر^(١) . .

نحن نرفض المسيحية السياسية . . لأن المسيح قال : «مملكتي ليست بالعالم» . . ولو حدثت المسيحية السياسية تصبح انتهاكاً على المسيحية ، كما حدث في العصور الوسطى أيام كان الباباوات هم الذين يدرسون الإمبراطور وينصبونه . هذه هي المسيحية

(١) إذا كانت النسبة العددية لأقباط مصر هي - عبر كل الإحصاءات السكانية ، منذ الاحتلال الإنجليزي في القرن التاسع عشر - تقف حول ٥,٥ ٪ من السكان ، فإن نسبتهم في الملكية للثروة والاقتصاد - باعتراف من يحترفون الحديث عن «عموم الأقبليات» تبلغ ٢٥ ٪ من ثروة مصر ومن المهن المتميزة - كالأطباء والصيادلة والمهندسين - وهم لا يعانون ما تعانيه الأغلبية المسلمة من عموم ومشكلات الأمة والإسكان والبطالة والفقر . . بل إن عدد الكنائس - بالنسبة لاعدادهم - قريب من عدد المساجد عند المسلمين - وذلك فضلاً عن حرية منبر الكنيسة ، وتأمين منبر المسجد ونهوض الكنائس بأدوار اجتماعية وثقافية وتعليمية وسياحية ، وتجريد المساجد من كل ذلك ، وبقاء الأوقاف الكنسية ، في حين جردت المساجد من كل ذلك .

السياسية التي ترفضها ، لأنها تختلف عن المسيحية . . مصر دائماً دولة مسلمة وامتدنية ولكن بدون تطرف . ولو عشنا كمسلمين وأقباط وفي إطار الصحوة الدينية المصحوبة بصحوة وطنية فيكون المستقبل أكثر من مشرق .

نحن في مصر نسيج واحد ، وسعداء بذلك ، وهذه حماية استراتيجية لنا كأقباط . ونحن لسنا لبنان ، ويستحيل أن «تلبس» مصر . وتقسيم مصر فكرة مسحيلة ، وغير مسيحية ، ولو فكرنا في ذلك معناه أننا نجهز أنفسنا للإبادة . وبعد ، كيف أقيم في أسبوط وأترك أديرة وادي النظرون؟ أو العكس! . . هذه فكرة غبية . هذه فكرة صهيونية من أجل تفتيت مصر . وعندما شاهدت ما يحدث في العراق ، قلت : نجح الصهاينة ، وأصبح العراق ثلاث دول . . فهذه الفكرة الصهيونية ليست قبطية . .^(١) !

وغير هذه الشهادة التاريخية ، التي تمثل وثيقة من وثائق الوعي بوحدة الأمة ، في مواجهة مخططات التفتيت . . هناك شهادة المهندس «سمير مرقص» - مدير مركز البحوث بأستشفية الخدمات العامة والاجتماعية ، بالكنيسة المصرية الأرثوذكسية - والتي يقول فيها : «إن الأقباط ، بالمقاييس العلمية ، ليسوا أقلية . . حتى في إطار الدولة العثمانية لم يورد الأقباط كأقلية ، ولم تنطبق عليهم قضية «المللة» ، مقارنة بكل الأقليات في الدول التابعة حينذاك للدولة العثمانية . . والخبرة التاريخية للأقباط تجعلهم أيضاً ليسوا

(١) (الملل والنحل والأعراق) ص ٥٢٩ - ٥٣٤ .

بأقلية دينية . . لعدم انفصالهم عن مجمل الحياة العامة والمجتمع ،
ولأنهم ينخرطون في الحياة اليومية بالمنطق الوطني العام ، وليس
بالموقف الدينى . والكنيسة القبطية لم تخلق تاريخياً فكرة الجماعة
الخاصة . . وتنظيماتها كنسية للرعاية الروحية ، وليست للحياة
العامة . . فأزمة الأقباط ، إذن هي أزمة المجتمع المصرى ، التى
تنعكس على كل من المسلم والقبطى على السواء^(١) .

فالمهموم واحدة . . والمأزق واحد . . والأمة واحدة . . والتاريخ
الإسلامى - فى علاقات الملل والطوائف - كان أفضل من الصيغ
والمفاهيم والممارسات التى جاءت مع الاستعمار ، والاختراق
الثقافى الغربى - كما أشارت هذه الشهادات ! . .

والحماسى القبطى «نبيل منير حبيب» يضيف : «لا توجد حضارة
قبطية ، لأن للحضارة - إن شئنا أن ندركها - مظهرين : (مادى
ومعنوى) ، والذى يبقى دائماً هو المعنوى (أدب - تاريخ - فلسفة) ،
وهنا أستطيع القول : إنه ليس هناك أدب قبطى ، ولا فلسفة قبطية ،
ولا نظم سياسية قبطية ، هناك تأثير روحانى ، يونانى ، أما المسألة
القبطية فهى خليط من ذلك ، إضافة إلى تنصيرها العادات
الفرعونية . مثلاً : ٢٧ كيهك - وهو الذى يقابل ٧ يناير - هو عيد
ميلاد «حورس» ، والمسيح لم يولد فى ذلك التاريخ . كذلك ،
فشكل «عمارة الكنيسة المصرية» هو شكل المعبد الفرعونى ، ومن ثم

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢٥ .

فليس هناك حضارة قبطية . والمسيحية المصرية مسيحية محلية ،
على عكس الإسلام المصرى فلديه بُعد عالمي . . .^(١) !

أما المفكر اليسارى القبطى «أبوسيف يوسف» - صاحب كتاب
(الأقباط والقومية العربية) - فإنه يقول : «لقد ساد علاقات
الأقباط بالعرب ، والمسلمين بالمسيحيين الاحترام والتعاون ، حتى إن
الوعظ فى الكنيسة تحول من اللغة اليونانية (التي ظلت تستعمل
ك لغة للدولة أيضاً من عهد البطالسة إلى عهد البيزنطيين ، أى
حوالى ألف سنة) إلى اللغة العربية . . فالجماعة الإثنية - بمصر -
واحدة ، تتكلم اللغة نفسها ، ولها ثقافة عامة مشتركة . . وتشكل فى
النهاية ، كياناً اجتماعياً واحداً . . .»^(٢) .

فجوامع الوحدة فى العربية ، ك لغة ، وفى الإسلام كحضارة . . لم
تكن بدائل لجوامع قبطية وطنية . . وإنما كانت بدائل شرقية لقهر
استعماري بيزنطى . . فالعربية حلت محل اللغة اليونانية - وليس
محل لغة وطنية مصرية - . . والحضارة العربية الإسلامية ، حلت
محل الحضارة الإغريقية - الرومانية ، لأنه لم تكن هناك حضارة
قبطية وطنية . . فالشرق كان مقهوراً - سياسياً وحضارياً وثقافياً
ولغوياً واقتصادياً ، بل ودينياً - إلى أن تحرر بالإسلام ، الذى بنى
حضارة ومدنية شرقية ، أبدعها كل أبنائه ، على اختلاف الملل
والأقوام . . فهى جوامع وحدتهم كأمة ، وهى ميراثهم الحلال . .
وبعبارة القانونى البارز الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا

(١) المرجع السابق . ص ٥٣٨

(٢) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٩١ - ٩٣ .

(١٣١٣-١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) : «فهذه المدنية الإسلامية هي ميراث حلال لكل المقيمين في الشرق ، فتاريخ الجميع مشترك ، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية»^(١) ..

تلك هي شهادات عقلاء الأمة في مواجهة مخططات التفتيت والتفكيك ، التي سلكت سبلها إلى هذه المقاصد عبر تنوع الملل واختلاف المذاهب وتعدد الأقوام ..

لكن ... هل يعنى هذا أن تطبيقات وممارسات حضارتنا الإسلامية المتعددية قد خلت من السلبيات؟ وأنها قد برئت من التمييز بين الأغلبية وبين «الأقليات»؟ .. وأنه لم تحدث فيها اضطهادات وتوترات مع أبناء الملل .. وبين المذاهب؟؟ ..

إننا يجب أن نميز ، في هذا الموضوع ، بين «المثال» وبين «الواقع» .. فالمبادئ الدينية ، والصيغ الفكرية ، والنظريات الفلسفية هي «مُثُل» .. والمثل ، عادة ، تستعصى على كامل التحقق والتطبيق ، وإلا فرغت حياة الإنسان من «المثال» ، وأصبحت جحيماً لا يطاق ، أو مواتاً لا أمل فيها ولا رجاء .. فوجود «المثال» ، الذى لم يطبق بعد ، هو الذى يبعث الحيوية والأمل والرجاء فى حياة الإنسان ، بوجود «مهام» فى «جدول أعمال» هذه الحياة ، تتطلب السعى لتحقيقها ، والاستباق على طريق الخيرات فيها ..

(١) (دكتور عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية) ص ١١٨ طبعة القاهرة

سنة ١٩٨٨ م .

فالتطبيق و «الواقع» لا يمكن أن يرقى إلى درجة «المثال» ، ولا أن يستنفد كل «المثال» ! . تلك قاعدة عامة في كل الديانات والفلسفات ، والحضارات ، على مر التاريخ .

لكن .. بقدر ما يكون «المثال» سامياً ، وبقدر ما يكون ديناً ، تتجاوز مقاصد تطبيقاته وإقامته المنفعة الدنيوية ، إلى حيث تصبح هذه الإقامة «للمثال الدينى» قرينة إلى الله ، وشروطاً لسعادة الدار الآخرة ، التى هى خير وأبقى ، بقدر ما يعين ذلك على أن يكون التطبيق و «الواقع» أقرب إلى السمو ، وأكثر تعلقاً «بالمثال» ..

ولقد كان هذا هو حال التعددية وتطبيقاتها فى حضارة الإسلام ..

فلقد خلت مسيرة حضارتنا ، تقريباً من الاضطهادات الراجعة إلى اختلاف اللغات والأقوام والأعراق ، لأن الإسلام قد جعل عصبية الدم والعرق والنسب جاهلية ، دعا رسوله ﷺ ، إلى تجاوزها ، فقال : «دعوها فإنها مُتَنَنَةٌ»^(١) ! .

وكانت الاضطهادات بسبب اختلاف الملل والشرائع الدينية ، مقصورة على أسباب أخرى ، ليس من بينها على الإطلاق قصور «المثال» أو المبادئ عن تحقيق أوسع الحريات أمام أبناء الملل والشرائع الدينية المختلفة ..

فما عرف عن اضطهاد بعض اليهود والنصارى ، لفترات محدودة ، وفى بعض الدول ، فى تاريخنا الحضارى ، كان فى

(١) رواه البخارى والترمذى .

أحيان كثيرة ردود أفعال لمدخلات خارجية واستعمارية - صليبية .. وتترية .. وإمبريالية - استخدمت نفراً من أبناء هذه الملل ضد أمن الوطن والدولة والأمة والحضارة ، إبان الصراعات المسلحة والاجتياحات الشرسة ، التي شنها أعداء هذه الأمة ضد الإسلام ، والتي هددت وجود أمته وحضارته ..

وعلى سبيل المثال .. فإبان الحملات الصليبية على بلادنا سعت النصرانية الغربية إلى التحالف مع التتر الوثنيين ضد العرب والمسلمين ، وأرسل البابا «إينوسنت الرابع» (١٢٤٣ - ١٢٧١ م) عام ١٢٤٥ م بعثة إلى عاصمة الدولة التترية الشرقية - «قراقورم» - لهذا الغرض - رأسها مندوب البابا «جون ده بياني كابريني» - .. وجاءت بعثة تترية من «خاقان» التتر «جغتاي» إلى الملك لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠) أثناء إقامته بقبرص ، وهو في طريقه لغزو الشام ومصر ، شتاء (١٢٤٨ - ١٢٤٩ م) جاءت لمواصلة مفاوضات التحالف ضد العرب والمسلمين .. ولما عادت البعثة التترية إلى بلادها ، من قبرص ، صحبتها بعثة فرنسية صليبية لاستكمال المفاوضات .. واستمرت مساعي التحالف حتى بعد هزيمة لويس التاسع ، فسافرت إلى «قراقورم» من حصن عكا الصليبي بعثة فرنسية ، رأسها رجل الدين «جليوم دبروك» ، واستمرت تفاوض في بلاط «الخان» التتري «منكوقا أن» ستة أشهر ! وأخيراً نجح الصليبيون في إقامة هذا التحالف ، فحول التتار حملتهم إلى بلاد الإسلام ، بعد أن كان التخطيط أن تتجه إلى أوروبا ! ..

ولقد استعان الصليبيون ، على عقد هذا التحالف ، بطائفة
النصارى النساطرة ، الذين كان لهم وجود ونفوذ فى بلاد التتار ،
واستغلوا ، فى ذلك ، إحدى زوجات «هولاكو» - دوقوز خاتون -
وكانت نصرانية الدين ، نسطورية المذهب! .. بل إن قائد جيش
«هولاكو» - الذى دمر بغداد (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) والشام وزحف
نحو مصر - والذى هزم فى «عين جالوت» (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م)
كان نصرانياً نسطورياً ، هو «كُتُبغا»^(١) ..

ولقد كان لهذا البُعْد النصرانى فى هذه الحملات ، التى هددت
وجود الأمة والحضارة ، انعكاساته لدى الطوائف النصرانية فى
المدن التى اجتاحتها التتار ، فحدثت خيانات - وخاصة من
الطوائف ذات المذاهب الغربية - بل وكشفت هذه الطوائف عن
خياتتها ، فأعلنت تحديدها للوطن والدولة والأمة فى ساعة العسرة
ولحظات الشدة ..

ففى دمشق - بعد أن اجتاحتها التتار - وكما يقول المقرئى
(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ - ١٣٦٥ - ١٤٤١ م) - عمدة مؤرخى العصر - :
«وامتطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرماناً من
هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم : فتظاهروا بالخمر فى نهار
رمضان ، ودرسوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبّوه على
أبواب المساجد . وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب
عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يبرون به فى

(١) د - محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ١١٦ - ١١٨ . طبعة دمشق
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

الشوارع إلى كنيسة مريم ، ويقفون به ويخطبون في الشناء على دينهم ، وقالوا جهراً : «ظهر الدين الصحيح دين المسيح» وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم ، فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولانكو - وهو كُتُبُعا - فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم . .»^(١)

وكان طبعياً أن تكون لهذه الخيانات ، التي جاءت للوطن والدولة والأمة والحضارة ، في ساعات العسرة ولحظات الحرج والشدة - والتي أعفنتها الطوائف النصرانية ذات المذاهب الغربية في الأساس - كان طبعياً أن تكون لها ردود أفعال - بعد تحرير هذه المدن من الاجتياح التتري - . فبعد هزيمة التتر - بقيادة «كتبغا» - في «عين جالوت» ، وانحسار موجة اجتياحهم للشام ، وعندما وصل إلى أهل دمشق كتاب السلطان المظفر قطز (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) «ببشر الناس بفتح الله له ، وخذلانه التتر سر الناس سروراً كثيراً ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوا ، وأخربوا ما قدروا على تخريبه» . .»^(٢)

فكان الاجتياح الخارجي ، وكان الاختراق لأمن الوطن والأمة والحضارة - من ثغرات الملل والطوائف - هو «الفعل» الذي ولد ردود أفعال من التوتر والاضطهاد على جبهة العلاقات بين المسلمين وقطاعات من أبناء الملل والطوائف غير المسلمة ، في السنوات التي شهدت واعقبت هذا الاجتياح وذلك الاختراق ! . .

(١) (كتاب السنوك لعمدة دول الملوك) الجزء الأول - القسم الثاني - ص ٤٢٥ - ٤٣٦ .

تحقيق : د . محمد مصطفى زيادة . طبعة القاهرة ١٩٥٦ م .

(٢) المصدر السابق - ج ١ - القسم الثاني - ص ٤٣٢ .

أما على جبهة الحكام ، الذين كان ظلمهم لبعض أبناء الملل والطوائف غير المسلمة ، جزءاً من الظلم الذي عم الرعية كلها ، مسلمين وغير مسلمين ، فإن المتوكل العباسي (٢٣٣ - ٢٤٧ هـ - ٨٤٧ - ٨٦١ م) مثال نموذجي لهذا النوع من الحكام . . فاضطهاده للنصارى كان جزءاً من الاضطهاد الذي أصاب الشيعة والمعتزلة ، وأغلب تيارات الفكر في ذلك التاريخ . . لقد أسقط شهادة المعتزلة أمام القضاء ، ونفاهم إلى جزيرة «دهلك» جنوبي البحر الأحمر - ! وحرّمهم الكثير من الحقوق الاقتصادية ومنع عنهم العطاء . . وكما هدم بعض مقابر النصارى ، فلقد صنع نفس الشيء بمقبرة الإمام الحسين ، فلقد سواها بالأرض ، ثم حرّث أرضها وزرعت . . والذين يقارنون مراسيم اضطهاده للمعتزلة يجدون شبهاً كبيراً بينها وبين مراسيم اضطهاده للنصارى^(١) . .

وكانت مظالم بعض الخلفاء والسلاطين ، تسلك إلى رقاب الرعية ، أحياناً كثيرة طريقاً خبيثاً! . . وذلك عندما تلجأ الدولة في الجبايات والإتاوات والمغارم إلى وزراء وجبّاة وصياف من غير المسلمين ، يملأون خزائن الدولة بإفقار الرعية ، وتزيد ثرواتهم أيضاً ، فيتطاولون على الناس ، فتأتى ردود الأفعال ضد المظالم لتنال من

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢ : ٣٠٣ تحقيق : فزاد سيد . مطبعة تونس ١٩٧٢ م والمقريري (الخطوط) ج ٣ ص ٢٧١ ، ٣٩ . مطبعة دار التحرير . القاهرة .

الطوائف والملل التي إليها ينتسبون! .. بل وكثيراً ما كانت الدولة تسترضى الجماهير الغاضبة بمصادرة هؤلاء الحياة الظلمة ، وأحياناً بقتلهم ، فتهدئ من ثورة الثائرين ، وتكسب الأموال والثروات في جميع الأحوال ! ..

ومن نماذج استبداد بعض اليهود والنصارى بأغلبية الرعية ، وما أحدثه ذلك من ردود أفعال ، عهد «العزیز بالله» الفاطمي (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ٩٧٥ - ٩٩٦ م) وما تلاه من مراسيم ضد أهل الكتاب في عهد ابنه وخليفته الحاكم بأمر الله (٣٧٥ - ٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١ م) فزوجة العزيز بالله كانت نصرانية ملكانية - أي من الطوائف النصرانية التابعة للمذاهب الغربية - .. وكانت لهذه الزوجة ، ولا بنتها «سيدة الملك» ! نفوذ واسع في شئون الدولة .. وكان لها أخوان من رجال الدين النصراني - «أرسانيوس» : مطران الملكانية في القاهرة ، ثم بطرك الإسكندرية - و «أريسطيس» : بطرك الملكانية في القدس - ..

وفي هذا المناخ المنحاز لغير المسلمين ، تولى وزارة مصر النصراني عيسى بن نسطورس .. ووزارة الشام اليهودي إبراهيم القزاز (منشأ)! .. فعمت مظالمهما جماهير المسلمين ، وظهر تمييزهما لأبناء دينهما ، وظهرت ردود الأفعال ضد هذه المظالم وذلك الانحياز .. وكما يقول المقرئى : «فاعتمز بهما النصارى واليهود ، وأدوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها في يد حورية

- (تمثال) - عملوها من قراطيس ، فيها : بالذي أعز اليهود بمنشا ،
والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك- (الخليفة
العزیز) -! ألا كشفت ظلامتى؟! . وأقعدوا تلك الصورة على طريق
العزیز ، والرقعة بيدها ، فلما رآها أمر بأخذها ، فإذا الصورة
- (التمثال) - من قراطيس - (ورق) - فعلم ما أريد بذلك ،
فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلثمائة ألف دينار ،
ومن اليهودى شيئا كثيراً^(١) !

وفى هذا المناخ ، الذى تستبد فيه الأقلية بالأغلبية . . نرى
الشعراء يدلون بدلوهم فى علاقات الملل والطوائف فيصورون الدولة
وكأنها تُحكم «بالثاوث» ! يعقوب بن كلس - وأصله يهودى - هو
الأب - والعزیز - الخليفة - هو الابن ! . . والوزير الفضل هو روح
القدس!! . . يصوغ الشاعر الدمشقى الحسن بشر ، ذلك شعراً
ينحاطب به المسلم ، فيقول ساخراً :

تَنْصُرُ ، فَالتَنْصُرُ دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا العزیز ابن وروح القدس فضل !

أما نقد سيطرة اليهود ، فيعبر عنها الشاعر المصرى الحسن بن
نخاقان ، فيقول :

(١) (انعاظ الحنفا بأنخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) ص ٢٩٧ . تحقيق : د . جمال الدين
الشيال . طبعة القاهرة ١٩٦٧ م . وابن الأثير (البداية والنهاية) ج ١١ ص ٣٢٠ .

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والمالك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا ، فقد تهود الفلك^(١)!

وفى نقد الترف والاستبداد ، اللذين تمتع بهما هؤلاء النفر من
النصارى واليهود ، يقول الشاعر ابن الخلال :

إذا حكم النصارى فى الفروج وغالوا فى البغال وفى السروج
وذلت دولة الإسلام طرا وصار الأمر فى أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج^(٢)!

فالقضية لم تكن تناقضاً بين الإسلام وبين الملل الأخرى ، ولا
عداء من المسلمين لأبناء هذه الملل ، ولا ضيق صدر بالتعددية
والاختلاف فى الشرائع الدينية ، وإنما كانت ، فى الجوهر والأساس ،
تناقضاً بين أغلبية الأمة المظلومة ، الباحثة عن العدل ، والتي تمارس
الظلم فيها ولها وضدها نفر من أبناء الملل غير الإسلامية ، اختارهم
حكام وولاة ظلمة ، لتكون مغايرتهم الدينية للأغلبية عاملاً على
قسوة قلوبهم وغلظة معاملاتهم مع هذه الأغلبية ! . .

ويشهد على هذه الحقيقة ، أن بعضاً من هؤلاء الكتاب والحياة
والصيارفة قد أراد - بإيعاز من الدولة - أن يستتر مظالمه ويغلف

(١) آدم ستر (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ج ١ ص ١١٢ ، ١١٤ ،

١١٨ ، ١١٧ . ترجمة : د . محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة بيروت ١٩٦٧ م .

(٢) (تخطت المقرئى) ج ٢ ص ١٢٣ .

جبروته بالإسلام ، فأعلن اعتناقه لدين الأغلبية - أملاً في تهدئة
 نائرة المظلومين من جماهير المسلمين - . . لكن ذلك لم يجلب
 إليه عطف المسلمين ، الذين رأوا في هذا «الإسلام» حيلة لجواز
 الظلم ، بل للإمعان فيه! . . فلم تجز عليهم هذه الحيل ، لأن القضية
 بالنسبة إليهم كانت العدل المفقود والمنشود ، وليست زيادة تعداد
 المسلمين أحاداً من الناس! . .

ويحكى المقرئ - في التاريخ لسنة (٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م) - موقف
 جمهور المسلمين من اعتناق بعض الكتاب والجبابة النصاري
 الإسلام . . ذلك الإسلام الذي لم يترك أثراً يخفف من تسلطهم
 وتجبرهم ومظالمهم ، بل لقد ازدادوا معه ظلماً وعتواً ، ونجوا ، بإعلانه ،
 من القتل والمصادرات! . . يحكى المقرئ ذلك ، فيقول : لقد «زاد
 تسلطهم بعد إسلامهم ، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم
 من إظهاره ! ، فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول :

أسلم الكافرون بالسيف قهراً وإذا ما خلّوا فهم مجرمونا
 سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون ، لا مسلمونا^(١) !

فهو «إسلام» يفرون به من الجزاء الذي استحقوه على مظالمهم
 - المصادرة للمال الذي جمعوه ، والقتل جزاء على ما اقترفت
 أيديهم في حق الناس - . . وبعبارة الشاعر : «رواح المال والروح»! . .

(١) المصدر السابق : ج ٣ ص ٥٤٥ - ٥٤٧ .

فالقضية - بعبارة المقرري - كانت «التسلط والتجبر» من قبل هؤلاء
الحياة ، ولم تكن نصرانيتهم أو يهوديتهم بحال من الأحوال ! ..

وإذا جاز للبعض أن يتهم الشعر والشعراء بالمبالغات .. فإن
كلمات العالم الألماني الحجة «أدم مئز» (١٨٦٩ - ١٩١٧ م) تعبر
عن هذه السيطرة وهذا الاستبداد ، من أهل الكتاب بجمهور
المسلمين ، فتقول : «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون في بلاد
الإسلام»^(١) ! ثم يشير إلى دور هذه السيطرة وذلك الاستبداد في
إحداث ردود الفعل بين الطوائف والملل ، فيقول «إن أكثر الفتن
التي وقعت بين النصارى والمسلمين نشأت من تجبر المتصرفين
الأقباط ..»^(٢) !

وردود الأفعال هذه ، هي التي تمثلت في مراسيم الحاكم بأمر الله
الفاطمي ، الذي خلف أباه العزيز .. فأنزل بالنصارى واحدة من
الحزن القاسية التي مرت بهم .. ثم عاد فعفا عنهم ، وعرضهم عن
المظالم التي أنزلها بهم .. وأخيراً راح ضحية الاستبداد الطائفي
الملكاني بقصر الخلافة ، عندما ذهب إلى مشواه الأخير بمؤامرة من
أخته «سيّدة الملك» !! ..

* * *

(١) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق - ج ١ ص ١١٢ .

وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية ، نفهم التحليل الموضوعي الذي كتبه الباحث اللبناني «جورج قرم» - والذي لا يمكن أن يكون متهماً ! - والذي يقيم فيه العلاقات بين المسلمين وأبناء الملل والطوائف غير المسلمة . ، فيقول :

«وبالاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين في الحاضرة الإسلامية كانت قصيرة ، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصى ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل ، الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة . وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، الذي غالى في التصرف معهم بشدة ! .

العامل الثانى : هو تروى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين ، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية ، فلا يعسر أن ندرك صلتها المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار . أما العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة . . إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضاً ، حيث أظهرت أبحاث «جب» و «بولياك»

كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق ١٨٦٠ م ، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان ١٨٤٠ م و ١٨٦٠ م . ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عديدة ، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغازي . .

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي ، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح ، سبباً في نشوب قلاقل طائفية ، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز ، وفي مراعاتهم وتحيزهم ، إلى حد الصفاقة أحياناً ، لأبناء دينهم ، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة . .^(١) ! . .

أما ما اشتهر من مطاردة الدولة العباسية للزنادقة ، وخاصة على عهد المهدي العباسي (١٥٨ - ١٦٩ هـ ٧٧٥ - ٧٥٨ م) ، فإنه لم يكن اضطهاداً لديانات الفرس القديمة - فلقد عومل أهلها معاملة أهل الكتاب - ولا كان ضيق صدر بالتعددية في الملل والشرائع - لأن هذه الزندقة - التي طاردها الدولة - كانت ستاراً دينياً لمخططات شعوبية سياسية ، استهدفت الإسلام - وليست الحرية الدينية - واستهدفت عروبة الدولة ، وطمعت في الثأر من الإسلام ودولته ، اللذين أذلا دولة الفرس ، وذهبوا بعرش الأكاسرة

(١) (الملل والنحل والأعراف) ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ - وهو ينقل عن كتاب جورج فرم (تعدد الأديان ونظم الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص ٢١١ - ٢٢٤ . طبعة بيروت ١٩٧٩ - . .

القدماء .. فكان موقف المهدي العباسي - كموقف ابنه الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ ٧٦٦ - ٨٠٩ م) من البرامكة - دفاعاً مشروعاً عن الدولة وفكريتها وهويتها ، أكثر منه ضيق صدر بالتعددية في الملل والمذاهب .. ويشهد على ذلك أن مطاردة الزندقة لم تؤد إلى أي تضيق على أي من أتباع الديانات والملل والمذاهب التي كانت قائمة في ذلك التاريخ ! ..

أما الضيق بالمذاهب الفلسفية الوافدة - غنوصية حلولية كانت .. أو مشائية يونانية - فلقد كان من ثمرات عصور التراجع الحضاري والجمود الفكري ، التي ضاقت حتى بالعقلانية الإسلامية المؤمنة وبالاجتهد الإسلامي ! .. فكانت تراجعاً عن الفهم الحقيقي «للمثال» الإسلامي في التعددية والتنوع والاختلاف ، أدى إلى تراجع في «التطبيق» لهذا المثال ! ..

وحتى في تلك العصور ، ظلت التطبيقات الإسلامية للتعددية ، زاهية ومزدهرة ومتألقة ، إذا ما قورنت بنظائرها في الحضارات غير الإسلامية .. فلقد كان ضيق الصدر عارضاً .. وموقوتاً .. تغالبه مبادئ الإسلام ، ومواريت الأمة في تطبيقات التعددية والتنوع في عصور الازدهار .. ويدعم هذه المغالبة أن «المثال» ، في النموذج الحضاري الإسلامي ، هو «دين» ، ووضع إلهي ثابت ، وليس مجرد نسق فكري - من التسامح .. أو حقوق الإنسان - يجوز تخطيه ، أو التنازل عنه ، أو تجاوزه بحال من الأحوال ! ..

وبعبارة «أرنولد» : فإنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد
 نعموا ، بوجه الإجمال ، في ظل الحكم الإسلامى ، بدرجة من
 التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة ، وإن دوام
 الطوائف المسيحية في وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات
 التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين
 كانت من صنع الظروف المحلية ، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ
 التعصب وعدم التسامح .^(١)

تلك هى حقيقة العلاقة بين الملل والمذاهب والأقوام في حضارة
 الإسلام ، إن على مستوى «المثال - النظرى» ، أو على مستوى
 «الممارسة .. والتطبيق» ! .

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ .

وأخيرا: معايير للحوار حول الأقليات

فارق بين «الأقلية العددية» وبين «الأقلية بالمعنى السياسى والاجتماعى والاقتصادى» ..

فالأقليات العددية ظواهر شائعة فى مختلف الشعوب والأمم والمجتمعات والدول والحضارات ، وهى - مع ذلك - جزء من التسيج الأصيل لهذه الشعوب والأمم ، ولا تعاني من أى لون من ألوان التمييز أو الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى بسبب هذه القلة العددية ..

فالنوبيون ، فى مصر ، أقلية عددية ، لكن تميزهم - كنوبيين - لا يترتب عليه تمييز لهم فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، أو غير ذلك من الحقوق ، وأيضا الواجبات ..

ومثل ذلك المتدينون بالنصرانية من المصريين ، هم أقلية عددية ، لكن هذا التمييز فى الاعتقاد الدينى لا يترتب أى تمييز ضدهم ، أو لحسابهم ، فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو تكافؤ الفرص أو الواجهة والنفوذ .. بل إن فى داخل نصارى مصر أقليات عديدة كذلك ، مثل الأدفنتست « - السبتيين - ، والبرونستانت - الإنجيليين - ، والكاثوليك .. الخ .. فهى أقليات عديدة بالنسبة للأرثوذكس .. بل إن بعض هذه الأقليات النصرانية ترفض الكنيسة الأرثوذكسية الاعتراف بمسيحياتها! .. ومع ذلك ، فلا أثر لقلة العدد - بالنسبة لأى منها - على المساواة مع المصريين فى

السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وسائر الحقوق والواجبات .. فهذا لون من التمايز في الاعتقاد الدينى لا يمنع هذه الأقليات العددية من أن تمثل خيوطاً أصيلة فى النسيج الوطنى للشعب المصرى الواحد ..

وكذلك الحال فى داخل الأغلبية المصرية المسلمة ، فالجنايلة قلة قليلة ، ويليها فى العدد الأحناف ، وجمهور مصر المسلم يتوزعه المالكية والشوافع .. وهناك الصوفية الذين تزيد أعداد مريديهم عن الستة ملايين .. وبينهم - هم الآخرون - أقليات وأغليات عديدة .. ومع ذلك كله ، فلا أثر لهذا التمايز فى التعداد على المساواة بين الجميع أمام القانون - الإسلامى منه والوضعى - فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والوجاهة الاجتماعية والنفوذ ، أى فى الحقوق والواجبات ، وتكافؤ الفرص بمختلف الميادين ..

وإذا كانت مشكلات الأقليات تشغل العالم ، بالحق حيناً وبالباطل فى كثير من الأحيان .. وهى قد عادت - كما كانت إبان المد الاستعمارى الغربى فى القرن التاسع عشر - كلمة حق يراد بها باطل ، وبأبداً لتدخل قوى الهيمنة العظمى لاختراق السيادة الوطنية ، وتقليص مساحة سلطان الدول القومية على شعوبها وأوطانها ، فإن الحاجة ماسة لينشغل العقل الوطنى والعربى والإسلامى بتحديد معايير العلاقات الصحية والعادلة بين الأقليات والأغليات ..

ولعل المسلمين - قبل غيرهم - أن يكونوا أولى الناس بالاهتمام

بموضوع الأقليات . . فتعداد المسلمين في العالم يبلغ ١,٣٨٤,٨٠٠ مليوناً - أي أكثر من مليار وثلث المليار (٢٤٪ من سكان العالم) - ونحو ربع هؤلاء المسلمين يعيشون كأقليات - في بلاد تزيد نسبة غير المسلمين فيها عن ٥٠٪ من سكانها - ف ٢٣٪ من المسلمين - أي ٣١٩ مليوناً - يعيشون كأقليات . . بل إن الأقلية المسلمة في الهند وحدها يبلغ تعدادها قرابة ١٥٠ مليوناً ! . .

فالمسلمون يجب أن يكونوا أحرص الناس على تقرير العدل والإنصاف للأقليات ، لحجم الأقليات الإسلامية . . ولأن أوطانهم - قبل غيرها - هي المستهدفة بالتدخل والاختراق من ثغرات الأقليات ! . .

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - هو خالق الجميع . . ومن أسمائه «العدل» . . فإن العالم مدعو إلى الاتفاق على كلمة سواء فيما يتعلق بعلاقات الأقليات بالأغليات . . وذلك طلباً لتحقيق «العدل» بين الناس ، كل الناس ، لأن تحقيق هذا العدل - من المنظور الإسلامي - «فريضة» ، وليس مجرد «فضيلة» ، وهو كذلك حتى مع «الأعداء» ! ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨٤] . . فالعدل فريضة حتى مع «الأعداء» ، وذلك فضلاً عن المواطنين الذين يمثلون خيوطاً أصيلة في النسيج الوطني للشعب الواحد والأمة الواحدة . . وأيضاً ، لأن العدل هو أقصر الطرق وأنجعها في كشف وإفشال مخططات الأعداء الذين يريدون تحويل الأقليات

إلى ثغرات لا اختراق الأمن الوطنى والقومى والحضارى ، بدلا أن تكون لبنات فى بناء هذا الأمن . .

وإذا كان العقل الوطنى والعربى والإسلامى مدعوا إلى إدارة حوار موضوعى حول «معايير العدل» ، التى يمكن اقتراحها على أنفسنا ، وعلى غيرنا من الأمم والشعوب ، بل والمنظمات الإقليمية والدولية . . قلعل فى مقدمة هذه «المعايير» :

أولا : استبعاد أية أوهام حول «الأقدمية الدينية» وما ترتبه من امتيازات للمتدينين بالدين الأقدم على أصحاب الديانات التالية فى الظهور . . فدين الله واحد ، والتعددية والتوالى إنما هو فى الشرائع والتمبوات والرسالات ، التى هى معالم على طريق الوصول إلى الله . .

والمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا ، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران . . وكذلك المسلمون المصريون ، هم مصريون - أى أقباط - أسلموا ، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر - وإذا كانت هناك هجرات عربية مسلمة قد تمت إلى مصر ، فلقد تمت كذلك هجرات أرمنية ويونانية وقبرصية مسيحية إليها . . ذلك أن أية أوهام حول الدين «الأصلى» والدين «الوافد» ستطال الجميع ، فالنصرانية فى مصر وافدة من فلسطين ، وكذلك حالها فى كل بلاد الدنيا حتى فى الفاتيكان ! . . واليهودية وافدة فى كل بلاد الدنيا - بل وحتى فى فلسطين - . . فالمقصد والعدل هو تعايش الديانات والمثل والشرائع - لأن هذا

التعايش هو السنة الإلهية فى التعددية - وليس انفراد دين من الأديان بأى مجتمع من المجتمعات .

وثانيا : أن المساواة فى حقوق المواطنة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هى حق إلهى ، يحكم خلق الله للإنسان - من الأقليات أو من الأغليات كان هذا الإنسان - فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان ، تُمنح أو تُمنع تبعاً لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة ، وإنما هى «حق إلهى» ، يحكم الخلق والتكريم الإلهيين لمطلق بنى آدم وعموم الإنسان .

وثالثا : أن حق الأقليات الدينية - وكذلك الثقافية واللغوية - فى إقامة دينها ، والحفاظ على ثقافتها ، هو حق إلهى مقدس ، يحكم أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أراد للخلق أن يكونوا وأن يظلوا مختلفين فى الشرائع والمثل والديانات والمناهج واللغات ، ومن ثم فى الثقافات والقوميات . فلا يجوز للأغليات الدينية أو الثقافية أو اللغوية أن تنتقص من حرية الاعتقاد الدينى وإقامة الشعائر الدينية والحفاظ على التمايزات اللغوية والثقافية لأية أقلية من الأقليات الدينية والثقافية ..

ورابعا : إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها فى «الدولة» ، كأن يسعى المسلمون فى فرنسا - مثلا- بملايينهم الخمسة - إلى فرض «الدولة الإسلامية» و«شريعته» على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسى ، أو أن يمثلوا «قبيته» على التوجه العلمانى للأغلبية - وكذلك الحال مع المائة

والخمسين مليوناً من المسلمين الهنود ، لأن «هوية الدولة» - بالمنطق الديمقراطي - هي خيار الأغلبية . . فإن هذه «الدولة» - التي تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية ، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية - مطالبة بأن لا تجور هويتها - علمانية كانت أو إسلامية - على الحق الإلهي والمقدس للأقليات في حرية الاعتقاد الديني ، وإقامة شعائر وفرائض الدين .

فالأقليات الإسلامية ، في البلاد العلمانية ، مطالبة باحترام القانون الوضعي ، بشرط أن يراعى هذا القانون حريتها في الاعتقاد الإسلامي وإقامة الفرائض الإسلامية ، ومراعات الحلال والحرام الديني في أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية ، وعدم التجريح لمقدساتها . .

والأقليات غير المسلمة ، في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة ، مطالبة باحترام قوانين وفقه معاملات الشريعة الإسلامية ، بشرط أن تحترم تقنينات هذه الشريعة - وأغلبها اجتهادات بشرية محكومة بالقيم الإيمانية المشتركة - أن تحترم حرية الاعتقاد الديني ، وفرائض هذه الديانات في الشؤون المالية للأحوال الشخصية والأسرية ، والشعائر الدينية والعبادية . .

وبذلك ، لا تجور الأغليات على الأقليات في شؤون إقامة الدين ، والمساواة الكاملة أمام القانون . . ولا تتحول الأقليات إلى «قيتو» ضد الأغليات في شؤون «الدولة» . . وهويتها - علمانية كانت أو إسلامية هذه الهوية - . .

تلك رؤوس أقلام ، للمعايير العادلة والمتوازنة ، التي يمكن أن تحكم علاقات الأقليات بالأغليات ، بهذا لو أخذت طريقها إلى «جدول أعمال» جماعات من «الحكماء» في بلادنا - وهم ليسوا قليلين والحمد لله - لنتفق في هذه القضية - الحساسة .. والمتفجرة .. والتي غدت مثل «قميص عثمان» .. بل و«مسمار جحا!» .. لنتفق فيها - نحن أولا - على كلمة سواء ، ثم ندعو إليها الآخرين .

إن الشكل الجديد لنظام الهيمنة الغربية - والذي يسمونه «العولمة» يعمل على اختراق سيادتنا الوطنية والقومية والحضارية «بورقة» الأقليات .. وما التشريعات التي يسنها الكونغرس الأمريكي ، والتي يفرض فيها على بلادنا العقوبات بدعوى اضطهادها للمسيحيين إلا الشكل المعاصر للتدخلات الاستعمارية التي عرفت بها بلادنا العربية والإسلامية - في العهد العثماني .. وفي ظل الاستعمار الإنجليزي والفرنسي - في القرنين التاسع عشر والعشرين ..

إنهم يتحدثون عن تآكل السيادة الوطنية بسبب هذه «العولمة» .. لكنهم لا يقولون لنا :

- لماذا يكون التآكل لسيادتنا الوطنية فقط .. ولا يصيب هذا التآكل سيادتهم الوطنية أيضا ؟! .. بل ولماذا يكون تآكل سيادتنا الوطنية لحساب تدخلهم في شئوننا الداخلية ، الأمر الذي يضخم حجم سيادتهم الوطنية على حسابنا ؟! ..

إن اللعب « بورقة الأقليات » ليس بالأمر الجديد ، فلأمتنا معه تاريخ ! .. وليس لدى إسلامنا ولا واقعنا الحياتي ما نعتذر عنه في علاقات الأغليات بالأقليات في وطن العروبة وعالم الإسلام .. وعلى الذين يحترفون الحديث عن « هموم الأقليات » أن يعلموا أنه ليست هناك حياة إنسانية بلا هموم ! .. وأن ما يسمى « بهموم الأقليات » إنما هي جزء من « هموم الأمة » - أغلياتها وأقلياتها - .. وأن تاريخنا الوطني والقومي والحضاري قد عرف منهجين في التعامل مع هذه « الهموم » :

١ - منهج «انعزالي - طائفي» .. تضع فيه كل طائفة قائمة بهمومها ومطالبها .. وتطالب بها الآخرين !

٢ - ومنهج «وطني وقومي وحضاري» .. تضع فيه الأمة - كل الأمة - قائمة بطموحاتها ، التي تصوغها في مشروع حضاري لإنهاض الأمة كلها .. ويقدر ما تتقدم الأمة على طريق تحقيق هذا المشروع الحضاري .. ويقدر ما تتوحد طبقاتها وجماعاتها في مواجهة التدخل الأجنبي ، بقدر ما تذوب الشوائب التي تعكر صفو العلاقات - أحيانا - بين هذه الطوائف والجماعات ..

إن خبرة مصر ، في هذه القضية ، ثمينة تستحق الدرس والاستلهام .. فأمام محاولات الاستعمار الإنجليزي تفتيت الوحدة الوطنية من خلال «ورقة الأقباط» ، برز المنهاج الانعزالي الطائفي ، والمطالب الطائفية ، التي عقدت لها مؤتمرات طائفية .. لكن المحدثين الأصيل للوحدة الوطنية المصرية سرعان ما تقدم في ترتيب أولويات

الجماعة الوطنية المصرية على المنهاج الانعزالي الطائفي . فانخرط الجميع فى الحركة الوطنية الساعية إلى إجلاء الإنجليز عن مصر ، وخاض الأقباط مع المسلمين ملحمة ثورة سنة ١٩١٩ م ، واحتضن الهلال الصليب ، وزاملت الكنائس المساجد فى إشعال الثورة الوطنية ، وخطب القساوسة على منابر المساجد ، والشيوخ على منابر الكنائس . . وكان القس الوطنى «سرجيوس» المعبر عن هذا المنهاج الوطنى والقومى والحضارى ، عندما قال : إذا كان الإنجليز يحتجون لاحتلالهم مصر بحماية الأقباط ، فليمت الأقباط وليحيا المسلمون !! . . وبهذا المنهاج - الذى عبر عنه «سرجيوس» العظيم ، كتبت الحياة الحرة للأقباط والمسلمين جميعاً ، وذابت الشوائب التى كانت تعكر صفو العلاقات قبل الثورة ، والتى كانت تضخمها المناهج الانعزالية والمطالب الطائفية . . ذابت هذه الشوائب عندما تلاحمت الصفوف حول المشروع الوطنى ، وفى بوتقة معركة التحرير . . الأمر الذى يجعل من دراسة خبرة مصر فى هذا الميدان فريضة وطنية واجبة الأداء ! . .

* * *

وإذا كان الاستعمار - بأشكاله المختلفة ، ومقاصده التى لا تتغير - قد عاود - بعد مرحلة التحرر الوطنى - اللعب «بورقة الأقليات» - القومية منها والدينية - فى مرحلة «المد القومى» . . وهو اليوم يعاود اللعب بهذه الورقة ، فى مرحلة «المد الإسلامى» ، فإن المنهاج الوطنى والقومى والحضارى ، الذى يواجه هذه المحاولات

الاستعمارية كأمة ، تتراص صفوفها وطبقاتها وطوائفها ، حول مشروعها الحضارى النهضوى .. إن هذا المنهاج هو البوتقة التى تذوب فيها الحساسيات - الواقعية والمصطنعة - ويتراجع فيها سوء الظن ، وتنصهر فى حرارتها المقدسة وتتلاحم الطبقات والطوائف والجماعات ..

وإن أمة تملك - على مر تاريخها الوطنى والقومى والحضارى - هذه الخبرات الغنية والنفيسة فى «صناعة الوحدة الوطنية» ، كأقصى سلاح فى مواجهة الاختراق الاستعمارى لأمنها الوطنى والقومى والحضارى ، حرام عليها أن تهمل هذه الخبرات فى مواجهة هذا الطور الجديد من الاختراق لأمتها باسم الأقليات ..

إننا نريد - ويجب - أن نكون خير خلف لخير سلف .. لا أن نكون كالسفهاء ، الذين ورثوا كنوزا - فى الوحدة الوطنية .. ومواجهة التحديات - لا يعرفون قدرها ولا قيمتها .. ولا يستفيدون منها فى مواجهة المحاولات المحمومة «للعولمة» اختراق أمننا الوطنى والقومى والحضارى من خلال الأقليات !

صدر من سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

- ١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .
 - ٢ - الغرب والإسلام .
 - ٣ - أبو حيان التوحيدى .
 - ٤ - دراسة قرآنية فى فقه التجدد الحضارى .
 - ٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .
 - ٦ - الانتماء الثقافى
 - ٧ - تنصير العالم .
 - ٨ - التعددية الرؤىة الإسلامية والتحديات .
 - ٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .
 - ١٠ - د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية .
 - والمشروع الفكرى
 - ١١ - تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .
 - ١٢ - عندما دخلت مصر فى دين الله .
 - ١٣ - الحركات الإسلامية رؤىة نقدية .
 - ١٤ - المنهاج العقلى .
 - ١٥ - النموذج الثقافى .
 - ١٦ - منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .
 - ١٧ - تجديد الدنيا بتجديد الدين
 - ١٨ - الثوابت والمتغيرات فى البقطة الإسلامية الحديثة .
 - ١٩ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .
 - ٢٠ - التقدم والأصلاح بالتنوير الغربى .
 - ٢١ - فكر حركة الأستنارة .. وتناقضاته .
 - ٢٢ - حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .
 - ٢٣ - أسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .
 - ٢٤ - الحضارات العالمية تدافع ؟ أم صراع .
 - ٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب ؟ أم بالإسلام؟؟
 - ٢٦ - الحملة الفرنسية فى الميزان .
 - ٢٧ - الإسلام فى عيون غربية .. دراسات سويسرية
 - ٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدنة ..
 - أم تفتيت وأختراق .
 - ٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة .
 - ٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة .
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . سيد دسوقى
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . زينب عبد العزيز
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . سيد دسوقى
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . صلاح الصاوى
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . عبد الوهاب المسيرى
- د . شريف عبد العظيم
- د . محمد عمارة
- د . محمد عمارة
- د . عادل حسين
- د . محمد عمارة
- ترجمة ا . ثابت عيّد
- د . محمد عمارة
- د . صلاح الدين سلطان
- د . صلاح الدين سلطان

الفهرس

٤	شهادات
٥	أرقام
١٠	التعددية : ثمرة إسلامية
١٩	الاختراق الاستعماري من خلال الأقليات
٤٧	على جبهة البربر الأمازيغ
٥٧	على جبهة الأكراد
٦٢	على جبهة الموارد
٦٧	على جبهة الأقباط الأرثوذكس
٩٩	وأخيرا : معايير للحوار حول الأقليات